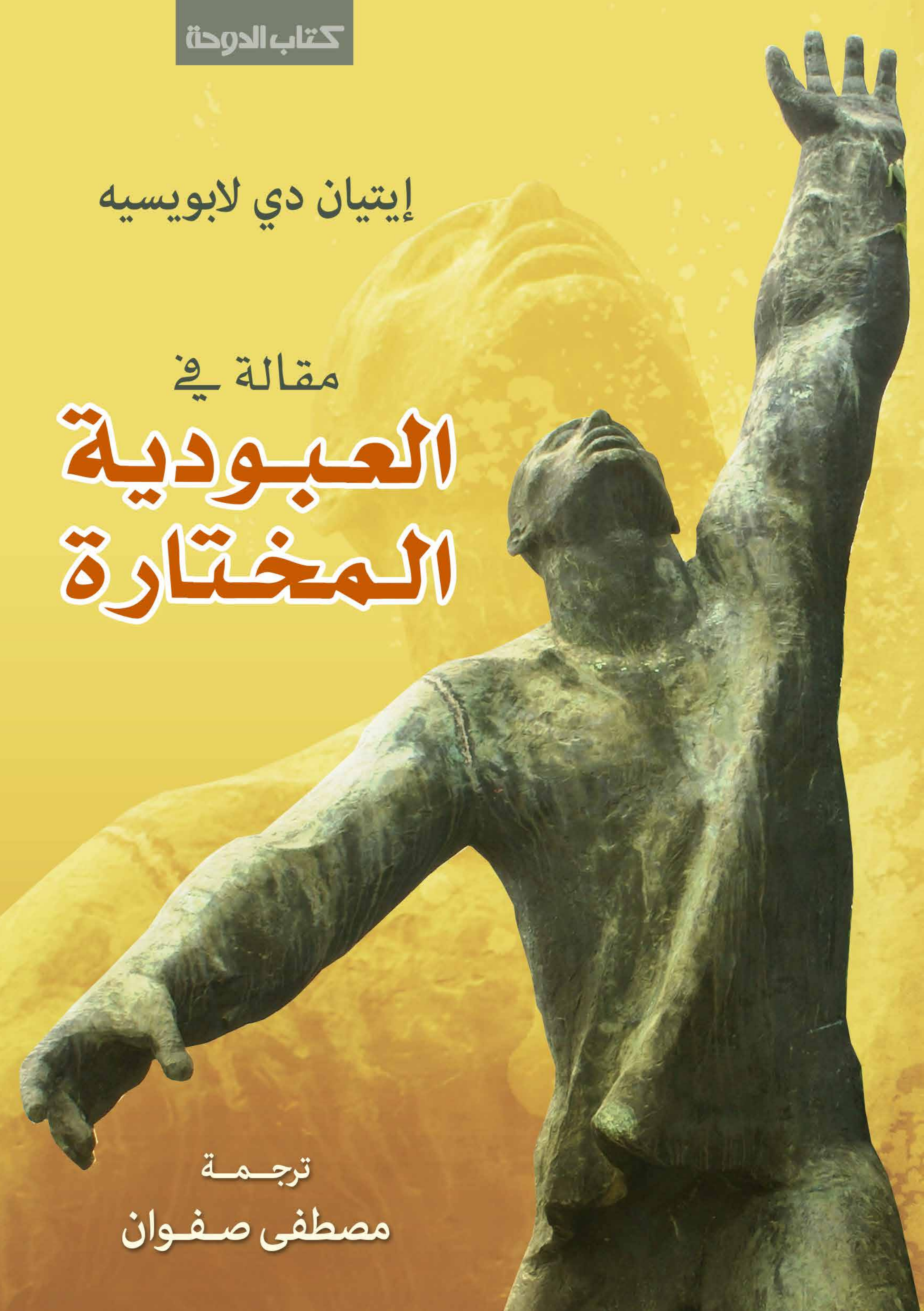

كتاب الدوحة
إيتيان دي لابويسيه
مقالة في
العبودية
المختارة
ترجمة
مصطفى صفوان

مقالة في

العبوديّة المختارة

إيتيان دي لابويسيه

ترجمة: مصطفى صفوان

تقديم: محمد الرميحي



كتاب الدوحة 34

يوزع مجاناً مع العدد 77 من مجلة الدوحة مارس 2014

مقالة في العبوديّة المختارة

إيتيان دي لابويسيه

ترجمة: مصطفى صفوان

توطئة: محمد الرميحي

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف : Kallo Viktor - هنغاريا
الإخراج والتصميم : علاء الألفي - مجلة الدوحة

فهرس الكتاب

إهداء

إلى إنجي أفلاطون وفؤاد مرسي

عاشا يجمعهما حب مصر

وماتا كما نموت جميعاً: فرادى

المترجم

في الانعتاق !

محمد الرميحي

عندما دفع إليّ الأخوة في إدارة تحرير مجلة «الدوحة» بهذا الكتاب كي أكتب له مقدّمة أصابتني الحيرة، فكيف يكتب كاتب مقدّمة في بداية القرن الواحد والعشرين، لكتاب صدر منتصف القرن السادس عشر؟ بعد القراءة وجدت أنه كتاب صغير له معنى كبير يعبر إلى تاريخ الإنسانية. هو في الحقيقة رسالة ،أو ما يسمّى اليوم مقالة، في موضوع محدَّد، هو البحث عن الانعتاق الإنساني، كما لا يفوت القارئ الفطن عند إلقائه نظرة عامة على الرسالة، أن ثمة علاقة واضحة بين الأفكار التي سطّرها الكاتب (المقالة) وبين ما يجري حولنا في الفضاء العربي اليوم، بل هي إرهاصات مبكِّرة لما شغل مفكِّري النهضة بعد ذلك في القرون الثلاثة اللاحقة لكتابة المقالة.

الكتاب الذي بين أيدينا عنوانه «مقال في العبودية المختارة». ولو خطر للمؤلّف أن تكون مقالته بعنوان آخر مثل «مقالة في الاستبداد» لما أخطأ

الهدف. لأن أحد تعريفات الاستبداد هو (عدم قبول المشورة في الشأن العام)، أو الاستبداد بالرأي، وهو أيضاً معنى من معاني العبودية !

المقالة كُتِبت في القرن السادس عشر الميلادي، ونحن الآن في القرن الواحد والعشرون، يالها من مسيرة زمن طويل مثقل بالمآسي الإنسانية! إلا أن الصاعق لأهل العقل، أن يكون مؤلّفٌ تَمَّ تحريره في ذلك الوقت وفي تلك الظروف الأوروبية العسيرة، له علاقة بما نحن فيه اليوم، وإن اختلفت التفاصيل، أو على الأقل بجزء كبير مما نحن فيه، (قبول العبودية) طوعاً بأشكالها المختلفة، دون أن يكون هناك وعي لما تعنيه العبودية من ضرر فادح على الإنسان وكرامته وحقِّه الأصيل في الحرّيّة.

هنا علينا أن نتوقَّف قليلاً لنرى أن الكُتب ليست بحجمها، إنما الكتب لها معيار أهم من الحجم، وهو معيار بقائها عبر العصور، ومقاومتها لتصاريف الزمن الذي يُبلي تقريباً كل شيء، عدا الأفكار. يالها من قوة إنسانية تملكها (الأفكار) التي تبقى كل هذه السنين، وتؤثِّر في الناس جيلاً بعد جيل، وتتحول معانيها مع ظروف مستجدّة إلى مواءمة تكاد تكون متطابقة، بين عصر مضى وعصر قادم! أَتُرى أن سرّ بقاء هذه الأفكار هو أن الإنسان (لا يتعلَّم) من الماضي ومن أخطائه ومن تاريخه، يريد دائماً أن يمرَّ بالتجربة نفسها في كل جيل وفي كل عصر حتى يختبرها بنفسه؟ أم أن الإنسان في الحقيقة لم يخلُ من (شيطان) في داخله، يزيِّن له أن السيطرة على الآخرين ونزع إنسانيتهم وتحقيق نوع من المتعة الغامضة، والتصرُّف في حياتهم على أنه نوع من النجاح يحقِّق الشعور بالتفوُّق ويشبعه؟

من الكتب التاريخية الصغيرة في حجمها والكبيرة في تأثيرها والتي بقيت على مَرّ الزمن كتاب «الأمير» لميكافيلي، الذي إن قرأته اليوم

سوف تجد شخصاً ما في بلد ما يحكم تقريباً بنصائح «الأمير»، حتى لو لم يكن قد قرأ الكتاب، كُتّاب آخرون مثل كارل ماركس وآدم سميث، كانو من الموتى عندما أدرك العالم أهمية ما كتبوا، كتاب واحد في تاريخنا العربي المعاصر لا يتعدّى أربعين صفحة، ولم يقرأه إلا عدد قليل من الناس على أبعد تقدير، أودى بحياة حاكم حديث. الكتاب هو «الفريضة الغائبة» والحاكم هو أنور السادات، تغيَّرت بعده المعادلات ولا زالت تتغيَّر. هكذا الكتب تبقى وتُطبَع مَرّة تلو مَرّة، حتى لو كانت رسائل قصيرة، ما يجمع بينها هو حكمة إنسانية مفقودة عند الغير وغير قابلة للتطبيق في آن معاً.

انظر كيف تحتفل الثقافة العربية في عصرنا بكتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمن الكواكبي، يعجز المرء أن يعرف عدد تكرار طبعاته حتى اليوم. هذا الكتاب لا زال يُقرَأ، ويكتشف العربي بعد قراءته أنه كتب له ولعصره، رغم مرور ما يقرب من قرن على تسطيره ! لم يكن هذا الكتاب، كما قال آخرون، منهم عباس محمود العقاد، خالياً من أفكار كتبها فلاسفة أوروبيون قبل الكواكبي، وقد تأثّر بها. كتاب آخر هو من ثمانين صفحة فقط للكاتب الشيخ علي عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم» جَرَّ عليه في حينه لعنة السلطة وتوابعها، إلا أنه بقي منبراً تجري العودة إليه تكراراً، كلما احتدّ النقاش حول العلاقة بين الحكم والإسلام في الفضاء العربي، وأعتقد أنه سيكون محطّ نقاش في المستقبل.

في تاريخنا العربي الكثير من الكتب التي تتَّصف تقريباً بمواصفات تختزلها ثلاث كلمات (صغيرة، عميقة، ومستمرة التأثير) لو قرأنا اليوم «رسالة الصحابة» التي خَطّها عبدالله بن المقفع، ضَمَّنَها رؤيته لإصلاح الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وأصحابه، ورأى وجوب الجهر بالنصيحة حين ساءت أحوال الأمة، وقد لاقى اضطهاداً من الحكّام

والولاة في عصره، رغم الرمزية التي كتب بها نصائحه، ولو عدنا إليها اليوم لاندثر أمامنا الجدل الذي تمَّت الإخاضة فيه في ذلك الوقت، ولا زالت أسبابه تفعل فعلها إلى اليوم، لأن المعضلات الفكرية التي أثارها لا زالت دون حَلّ حتى الساعة.

الرسالة التي بين أيدينا مؤلِّفها هو إيتيان دي لابويسيه الذي ولد في مدينة سارلا عام 1530 إلى الجنوب من ليموج، المعروفة حتى اليوم بصناعة البورسلين. الفترة التي عاشها المؤلِّف هي فترة النقاش العظيم الذي ساد انبثاق الأفكار الحديثة في أورربا في مجمل القرن السادس عشر،ولكن لم يكن هذا النقاش دون معارضة، وهي فترة كان الصراع فيها دامياً بين مكوِّنات المجتمع الأوروبي الدينية والقومية. كانت الكنيسة قد غرقت في عصر الخرافة، وكانت الطليعة الأوروبية تنزع إلى التفكير العلمي في مرحلة بداية الاكتشافات العلمية، وهي مرحلة شديدة الاحتقان ومتعدِّدة الصراعات، نشطت فيها حركات التفكيك الديني مع التجمُّع القومي، مع الحروب الأهلية الضروس، مما أدّى إلى سيل ضخم من الدماء والآلام والبؤس والفاقة والظلم.

يناقش الكتاب فكرة مركزية هي: (هل الحرّيّة مطلب مركزي للإنسانية؟ وإن كانت كذلك، لماذا يقبل البعض أن يكون (مستعبَداً) بشكل طوعي، دون أن يحاول التخلص من عبوديته؟)، ويحاول الإجابة عن هذا السؤال الكبير والمعقَّد الذي أرَّقَ الإنسانية طويلاً بالإشارة إلى أهمية (الوعي) لدى الإنسان، وكيف يتكوَّن هذا الوعي، سواء الوعي بمقاومة العبودية أو نقص الوعي بقبولها!

في الأشهر الأخيرة صدف أن شاهدت عدداً من الأفلام يدور موضوعها حول (العبودية). اثنان لا زالت أحداثهما عالقة في مخيِّلتي: الأول اسمه

«الخادم، أو رئيس الخدم» الرجل الأسود الذي جاء من العبودية بكل سوءاتها ليخدم بشكل متواصل خمسة رؤساء أميركيين في البيت الأبيض، من الرئيس دوايت أيزنهور إلى الرئيس بل كلنتون،ومشاهد الفيلم مثيرة، خاصة في بدايتها، عندما يغتصب رجل أبيض والدة البطل، ثم سماعه صراخها الموجع، ثم يخرج المغتصب ليرمقه الأب بنظرة لم يستحسنها، فيُخرِج الرجل الأبيض مسدسه، ويفرغ في رأسه رصاصة تنهي حياته في لحظة، الولد الذي أصبح رئيس خدم شهد هذا في صباه، ولم تفارقه تلك الصورة. والفيلم الثاني الذي شاهدته مؤخَّراً كان بعنوان «اثنا عشر عاماً من العبودية» يحكي قصة رجل أسود حرّ ومتزوج، تقوم عصابة محترفة بخطفه وتحوِّله إلى عبد يُباع في سوق النخاسة، يقاسي الأَمَرَّين من عبوديته في حقول القطن في نهاية القرن التاسع عشر إلى درجة أنه أشرف على الموت شنقاً بسبب كلمة رَدَّ فيها على رئيس العمال، حتى تُكتَب له الحرّيّة تحت ظروف معقَّدة، بعد اثني عشر عاماً من العبودية، وبقي ليروي قصته، التي كانت نادرة، فمعظم المختطفين وقتها من السود، وهم وإن كانوا أحراراً إلا أنهم قضوا حياتهم في العبودية.

القصتان السابقتان حقيقيَّتان، والسينما الحديثة قد رسمت ما عاناه العبيد في الولايات المتحدة وفي غيرها من ظلم بالغ القسوة وشديد القهر وغير إنساني، وبعضه كان يُبَرَّر وقتها بنصوص دينية. بل لقد شهدت ذلك في زيارة منذ سنوات إلى الجزيرة السنغالية حيث كان العبيد السود يُساقون منها إلى الولايات المتحدة، كان كل اثنين يُربَطان معاً، وإن اختلَّ توازن أحدهما وهو في الطريق الضيّق إلى السفينة وسقط في البحر فإنه يأخذ الآخر معه إلى غياهب بحر الظلمات.

هل يعني أن الإنسان خلق في جسم واحد من قسمين: جانب خيِّر منه، وجانب بالغ الشر؟ هل الإنسان يمكن أن يكون شيطانياً وشريراً إلى

درجة أن يعامل إنساناً آخر بأحطّ من معاملة الحيوان؟ وهل يمكن أن يكون الإنسان -بسبب ظروف المنشأ أو ظروف العيش- مطواعاً لغيره دون أن يبدي تذمُّراً أو رغبةً في الانعتاق ؟ تلك أسئلة إنسانية كبرى يقوم المؤلِّف هنا بنقاشها، حتى وهو في فضاء القرن السادس عشر، حيث انتشرت العبودية، بل والتجارة فيها انتشاراً يشبة اليوم انتشار التجارة في التليفونات المحمولة.!

العجيب والمُحَيِّر أن الأسئلة الأساس التي يطرحها المؤلِّف في ذلك العصر المتقدِّم، عصر التراتب الاجتماعي الحادّ، وعصر امتلاك الأرض ومَنْ عليها، وعصر الإقطاع والسيطرة على ما فوق الأرض وما تحتها، عصر النبلاء ورعاة الكنيسة وسيطرة البابا على قلوب وعقول ملايين البشر، وانتشار الخرافة، تلك الأسئلة نفسها تُطرَح اليوم في كتابات معاصرة، بل إن من يقرأ الرسالة التي بين أيدينا وقد سَمَّيْتها (كتاباً) يرى أنه تقريباً يصادف القضايا نفسها التي يطرحها الكتاب تقريباً، كأشكال الحكم، وسبب الثورات، وحقوق الشعب، والوعي أو نقصه، والقهر، وأهمية التسامح، وقصور حَلّ الصراعات بالقوة.. إلى آخر مثل هذه المفردات والعناوين التي لا يخلو منها مؤلّف اليوم في السياسة أو الاجتماع.

ننظر إلى أوروبا اليوم، أو بالأحرى، ينظر إليها الجيل الجديد وكأنها بلاد من (خبز وعسل) إن صح التعبير:ديموقراطية مزدهرة، وحقوق إنسان، ومحاكم دولية ومحلّيّة عادلة، واعتناء بالمحتاجين في المجتمع، ومساواة أمام القانون،وضرائب عادلة،ومنتجات حديثة، ومساواة بين الرجل والمرأة، أي تقريباً كل ما يلزم لاعتبار المواطن في تلك البلاد في شبه جَنّة أرضية ! ولكن، بالرجوع إلى بضعة قرون قليلة لا تتعدّى الأربعة، سوف نرى

صورة مختلفة وعكسية بل وسوداوية: صراعاً دموياً، وقمعاً لا إنسانياً لا يمكن حتى تصوُّر مدى صلفه ووحشيته، يعنى ذلك كله أن الإنسان يستطيع أن يتقدَّم في سُلَّم (الإنسانية) إن استطاع أن يحكِّم العقل من جهة، وإن استطاع المقهور رفع رأسه ليقول: كفى.

مرة أخرى: هل (الحرّيّة) مطلب إنساني؟ في ذلك الوقت (القرن السادس عشر) كانت مطلباً للمثقَّفين وأصحاب الوعي، وكانت تعتبر باباً لا مناص من دخوله من أجل أن يصبح الإنسان إنساناً بحق، إلا أن القرون اللاحقة، ومع تطوُّر البشرية وتجاربها المريرة لم تعد (الحرّيّة) على إطلاقها هي المقصد، فهي (أي الحرّيّة) مهمّة عندما تُقَنَّن، ويصبح لها قواعد مُتَفَّق عليها.

في القرون اللاحقة لصدور ما نحن بصدد قرءاته «مقال في العبودية المختارة» تطوَّر التفكير إلى ما بعد الحرّيّة، صار لدينا مفهوم مرادف اسمه (الديموقراطية) أي أن ينتخب الناس مَنْ يمثِّلهم بشكل دوري مُقَنَّن، وأن يقوم هؤلاء المنتخبون بكتابة القوانين التي تنظِّم أعمال المجتمع. لم يكن ذلك نهاية المطاف، فقد وجدت الإنسانية من خلال تجاربها المرّة التي تشبه العلقم أن (صناديق الانتخاب) يمكن أن تأتي بدكتاتورية مقيتة، حدث هذا لَمّا اعتلى أدولف هتلر وحزبه سُدّة الحكم في ألمانيا في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، عن طريق صناديق الانتخاب. كان ذلك درساً للإنسانية يقول: لو أن ألمانيا لم ترزح تحت وضع اقتصادي واضطراب وتصدُّع اجتماعيين نتيجة ما حاق بها من هزيمة في الحرب العالمية الأولى، لَظلَّ أدولف هتلر نَقّاشاً غير معروف!

إذاً، صناديق الانتخاب ليست حلّاً قاطعاً يجلب (الحرّيّة)، ثم تطوَّر

الحديث إلى أهمية وجود (مؤسَّسات المجتمع المدني)، وقد انبهر ذلك العالِم الفرنسي ألكسي دي توكفيل بالتنظيم (المجتمعي الذي وجده في الولايات المتحدة)، وكتب عن الديموقراطية الأميركية ما صار يُرجَع إليه حتى اليوم، ووجد أن التقدُّم في أي مجتمع هو ثانوي للتعاون البشري، الذي هو الأصل، ولا يمكن أن يصل إليه أيّ مجتمع إلا إذا كان محكوماً بـ(حكومة قوانين لا بشر)! إذاً، الروابط التي تجمع الجماعات الصغيرة في المجتمع الأكبر لتحقِّق أهدافها، هي التي تجعل المجتمع حُرّاً، متى ما مَكَّنَها الفضاء القانوني من تنظيم نفسها.

هنا أضفنا إلى فكرة الحرّيّة والديموقراطية فكرة أخرى هي (المجتمع المدني المنظّم) إلا أنه يبقى شيء آخر يُسَمّى اليوم (الوعي). يشير الكاتب إلى فكرة الوعي بقصة لها معنى مأخوذة من تاريخ الإغريق تقول إن شخصاً أخذ جَرْوَيْن من أمّ واحدة، أحدهم تمَّت تنشئته في المطبخ، وآخر أُطلِق في الحقول، وبعد فترة، جِيءَ بالكلبين، ووُضِع أرنب و إناء فيه حساء أمامهما، فقام كلب المطبخ بالاقتراب من الحساء لشربه، أما كلب الحقول فقد بدأ يطارد الأرنب! هذه القصة التي تبدو رمزية، تعني أن البيئة تتحكَّم في تصرُّف المخلوق، والإنسان كذلك ابن بيئته. فمن يكون عبداً فإن أبناءه يشبّون على قبول العبودية، وتبدو لهم أنها من طبيعة الأشياء لا يحتاجون إلى تغييرها.

صحيح أن الحرّيّة التي هي صلب هذه الرسالة تعني أن يكون الفرد قادراً على اختيار تصرُّفاته دون تدخُّل من الآخرين، كما أن القيمة المعنوية للحرّيّة لم تعد مَحَلّ نقاش من أجل تقدُّم المجتمع، كما طوَّرها فلاسفة أوروبا في القرن التاسع عشر، مثل جان لوك، وثومس هوبز، ومن جاء بعدهما من المفكِّرين، إلا أن البشرية اصطدمت بـ(حدود الحرّيّة) من جهة، وبآليّات تحقيق تلك الحرّيّة من جهة أخرى. من هنا ظهرت فكرتا

(الحرّيّة الإيجابية) و(الحرّيّة السلبية) اللتان طوَّرهما الفيلسوف إكسفورد إيزايا برلين، في مقال شهير بعنوان «مفهومان للحرّيّة»، وقد عرف الحرّيّة السلبية بأنها (النطاق الذي يمكن للشخص أن يتصرَّف فيه دون إعاقة من الآخرين) أي أنها عالَم للفِعال غير المكبوحة، أو غياب الإجبار، أما الإيجابية فهي (كون الإنسان سَيِّد نفسه). زعم إيزايا أن الأخيرة ليست حرّيّة بل هي قدرة، لأن الحرمان من الحرّيّة هي (النيّة على منع العمل). والفارق بينهما كالفارق بين عدم شراء كتاب، لأن السلطة قد منعت تداوله، أو عدم القدرة على شرائه لأنه لا توجد نسخة منه في السوق! هنا الفرق بين (الحرمان) من الحرّيّة ووجود عائق ما يمنع مؤَّقتاً تحقيق رغبة ما. الأخيرة تقع في حدود الحرّيّة.

أمّا آليات الحرّيّة فهي أكثر تعقيداً، فعلى الرغم من أن كثيراً من المفكِّرين ذهبوا إلى أن تحقيق الحرّيّة هي بوضع تنظيم يُسَمّى (الديموقراطية) أي أن يكفل للجميع من المواطنين حرّيّة اختيار ممثِّليهم. إلا أن آخرين، منهم كارل ماركس وجد (أن الناس لا يدركون مصالحكم الحقيقية)، ولذا وجب أن تقوم طبقة لها وعي ناضج بمصالحها بقيادة المجتمع (الطبقة العاملة). وعلى رغم أن مثل هذه النظرية وُجِد مَنْ يفنِّدها، إلا أن الفكرة العامة وهي (هل يستطيع جميع الأفراد في المجتمع تحقيق مصالحهم؟) ظلت محلّ أخذ وَرَدّ في فضاء الديموقراطيات الحديثة. فمن خلال آليات الديموقراطية الحديثة يمكن تضليل الجمهور العام، ويمكن أن تصادر (الأغلبية) حقوق (الأقلّيّة)، بل لا زال مفهوم (وعي الناخب بمصالحه) محدوداً، حيث يمكن إغراؤه أو تضليله تحت شعارات قومية أو وطنية أو حتى دينية أو فئوية ! فالناس يمكن أن يقعوا -بسهولة- ضحية لأحاسيسهم وتحيُّزاتهم وعواطفهم، حتى إنهم يمكن أن يقعوا -بسهولة- في خداع الحديث أو خداع الوعود، أي إنهم (أو أكثرهم)، في النهاية،

تحكم تصرفاتهم -خاصة السياسية- أليات غير منطقية، ويخضعون للهوى لا للعقل. حتى في التجارب النيابية، كثيرون في فضائنا الشرقي على الأقلّ يظلون مندوبين مقيَّدين بآراء الناخبين ومحقِّقين لمصالح ناخبيهم الضيِّقة، كما إن بعضهم ينضمّ إلى الدهماء خوفاً منهم أو رجاء أصواتهم.

من هنا تطوَّر البحث عن الحرّيّة لتقديم مفهوم يسمّى اليوم (الديموقراطية الليبرالية) التي لها عدد من الشروط تنجيها مما عُرِف في بعض التجارب بـ(الديموقراطية الشمولية). من تلك الشروط المسبقة المساواة بين أفراد الشعب، وهي خمس أنواع من المساواة: أولاً المساواة الأخلاقية بين أفراد الشعب، والمساواة أمام القانون ثانياً، أي أن القانون - كما يشار إليه في الكثير من النصوص الحديثة -(أعمى) لا يتحيَّز لجنس أو عرق أو فئة أو نفوذ أو جاه أو سلطة. ثالثاً: المساواة السياسية، فعلى امتداد تاريخ البشرية تعرَّضت المساوة السياسية إلى تجاهُل بشع باسم السلطان أكان روحياً أم كان دنيوياً، وهنا يتلبس الأمر بين (التماثل) و(التساوي). والقصد هو التساوي في الحقوق العامة كحقّ الحياة والتداوي والتعليم، وحقّ القول والبحث والنشر والحرّيّة والتملُّك والمرور، أي الحقوق التي أصبحت تسمّى (طبيعية) للإنسان الفرد. ورابعاً: المساواة في الفرص المتاحة للمواطنيين، وأخيراً: التفرقة الإيجابية للمحرومين كالأقيات أو كأصحاب القدرات المحدودة(الإعاقة). وـ في بعض الأحيان -كالمرأة في مجتمعات تحرمها من حقوقها الإنسانية.

دخل اليوم -بداية القرن الواحد والعشرين- مفهوم جديد بدأ في الصعود منذ نهاية القرن الثامن عشر وهو (الحرّيّة الاقتصادية). وعلى الرغم من خفوت هذا العنصر في بعض مناحي التاريخ (مثلاً مع صعود الاشتراكية الماركسية) في بعض البلدان، إلا إن سقوطها السريع نسبياً

وفشلها وجمودها ضرب للبشرية مثلاً أن (الحرّيّة الاقتصادية) جزء لا يتجزّأ من الحرّيّة، وهي كالحرّيّات الأخرى لا تكون مطلقة، بل مقيَّدة بما يفرضه العقل من عدم جور على حقوق الآخرين. لقد عرفت البشرية أن الاقتصاد الحرّ يرفع من مرتَّبات العمال، ويصون حقوقهم، ويساعد على المسيرتين الاقتصادية والاجتماعية، بل إن بعض الدراسات تقول لنا إن الاقتصاد الأميركي لم ينتعش إلا بعد تحرير العبيد، فهم كقوة عمل وقوة شرائية أفضل للاقتصاد من استرقاقهم، بل الحرّيّة الاقتصادية هي أفضل من الاستعمار، وقد ثبت مؤخَّراً أن استفادة بلد مثل بريطانيا من علاقة متوازنة اقتصادية مع بلاد مثل الهند، أفضل مما كانت تستفيد منه بريطانيا لَمّا كانت مستعمِرة للهند طوال أكثر من قرنين من الزمان!

تبقى نقطة أخيرة تجبرنا الرسالة التي نحن بصدد قراءتها على التفكير فيها مليّاً، فعلى الرغم من تقدُّم التفكير البشري في موضوعات مثل الحرّيّة والديموقراطية وحقوق الإنسان والمساواة بين البشر وحق المتاجرة، وحقّ الانتخاب والتمثيل إلا أن (الوعي) لا زال في حدود غير ناضجة لدى الكثير من قاطني هذه الأرض التي نحيا عليها. فهناك من يقبل (الضيم) أو يساعد علية بأسماء مختلفة منها: الديني، والقومي، والخرافي، وغير العقلاني! والسؤال: كيف يمكن تطوير الوعي؟ هنا نجد أن وسائل تطوير الوعي المستخدمة اليوم بعضها -في حقيقة الأمر- (يزيِّف الوعي)؛ فالمدارس يمكن أن تكون وسيلة لتزييف الوعي، وكذلك وسائل الاتِّصال الحديثة، وكذالك التنشئة الأسرية والتضليل السياسي، كلّها بسبب مصالح فئات اجتماعية تملك النفوذ تقوم بتزييف وعي المواطن لدرجة قبوله بالضيم،أو حتى بشكل من أشكال العبودية الحديثة، كعبودية العادة أو العرف أو التقليد أو المحاكاة. لا زال البعض منا يرى أن غاية الحكومة الحديثة هي (تعزيز الفضيلة)، ولا يريد أن

يعترف أن الفضيلة نسبية ومتغيِّرة! وأن غاية الحكومة الحفاظ على الحرّيّة من أجل ازدهار المجتمع، وتزيد وسائل الاتصال الحديثة في بعض المجتمعات -من بينها المجتمعات العربية- في تغييب الوعي بتوزيع ونشر الخرافات والأفكار غير العلمية، فيقع الفرد (عبداً) لتلك الأفكار، بعد أن تحوَّلت العبودية في زماننا من حالها المادي إلى الحال المعنوي.لقد واجهت شعوب كثيرة نقص الوعي، ولعل قول توماس جفرسون -الرئيس الأميركي واضع إعلان الاستقلال- في ذلك، شارة إلى ما كان يواجهه المؤسِّسون في أميركا من صعوبات، إذ قال: «لا أعرف مكاناً أكثر أمناً لسلطة المجتمع المطلقة من الناس أنفسهم، وإذا اعتقدنا أنهم غير مستنيرين بما يكفي لممارسة سيطرتهم بتعقُّل كامل، فلن يكون العلاج هو سلبهم تلك السلطة، بل توجيه وعيهم من خلال التثقيف والتعليم السياسي.». والتعليم والتثقيف السياسي هما ما تفقده اليوم الأغلبية من المجتمعات الناشئة.

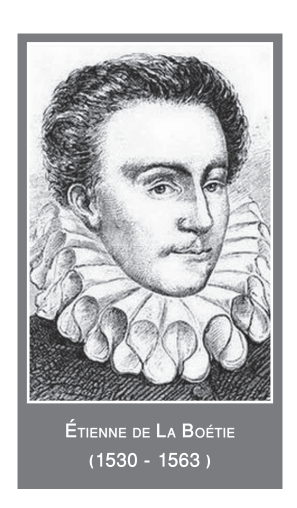
ويأتي الآن السؤال الجوهري: كيف يمكن -في زماننا- أن تُستحدَث سلطات من أجل (الحَدّ من استخدام السلطة تعسُّفياً)؟ الإجابة عن هذا السؤال تبدو بسيطة في الحديث، عسيرة في التنفيذ وهي (أن يملك الناس الحقّ، والقدرة، والمؤسَّسات لعزل مَنْ هم في السلطة إن أساؤوا استخدامها)! لم يتوافر ذلك في الفضاء العربي حتى الساعة؛ لذلك نجد أن التغيير من أجل الفكاك من الظلم الاجتماعي جاء عنيفاً أو شبه عنيف في فضائنا العربي، وهو لا زال كذلك في بعض ربوعنا، وربَّما يستمرّ، وقد يكون أكثر عنفاً كلما سَدَّت السلطات سُبُل وطُرُق التغيير والتداول على السلطة.

صرخة إيتيان دي لابويسيه قبل خمسة قرون التي قال فيها «حتى غدت الحرّيّة تبدو اليوم وكأنها شيء لا يمتّ إلى الطبيعة» هي صرخة لا زالت

تتردَّد في أرجاء مختلفة من المعمورة، فالحرّيّة تلك التي يبحث عنها الإنسان لا زالت مُتنازَلَ عنها في مكان، ومزيَّفة في مكان آخر، ولا زال قوله: «إن الحيوان لا يتنازل عن حرّيَّته إلا بعد دفاع ضروس ! ولكن الإنسان يفعل ذلك بسبب الحاجة أو بسبب غياب الوعي» ماثلاً.

هذه المقالة التي بين أيدينا قد تقدِّم لنا ضوءاً نستنير به في طريق البحث عن الحرّيّة.

***



Étienne de La Boétie
(1530 - 1563)

حياة دي لابويسيه وأعماله

وُلِد لابويسيه عام 1530، وفي قرن بدأ ولَمّا تنقضِ بضعة أعوام على وصول كريستوفر كولومبوس إلى سواحل أميركا (1492 م)، وفاسكو دي جاما إلى الهند (1498 م)[1]. ولد في الأول من نوفمبر في مدينة سارلا إلى الجنوب من ليموج وإلى الشرق من بوردو(فرنسا)، ولا يزال بوسع السائح وهو يمرّ بشوارع هذه المدينة الصغيرة أن يعجب بجمال منازلها التي تشهد لها منذ القرن السادس عشر بالدعة والرخاء. ونعلم أن الملوك -وإن اختفى بظهورهم واشتداد نفوذهم الحلم القديم حلم «المملكة المسيحية- قد استندوا مع ذلك في تقسيم المدن والأقاليم إلى تقسيمات الكنيسة وبدأوا بها، فكانت سارلا من الوجهة الكنسية أبرشية، وكانت من الوجهة

1- من المقطوع به أن الصين كان لها أسطول وصلت سفنه إلى سواحل إفريقية، وكان لأميرالاته مشاريع أقرانهم الأوروبيين، ولكن الصين كانت إمبراطورية موحَّدة، أي دولة لا ترى وجهاً لجمع المال إلا بتحصيل الضرائب والمكوس، وترتكز إلى بيروقراطية متحجِّرة لا ترى في أمثال هذه المشاريع إلا مغامرات لا طائل من الإنفاق عليها، بينما كانت أوروبا مسرحاً تتصارع فيه النظم السياسية على اختلافها، ويتصارع فيها على احتكار الدول وتأسيسها ملوك كانوا هم أنفسهم كما قال أحد المؤرخين أول أصحاب المشاريع، زاد شرههم للذهب بقدر استنزافهم له في الحروب. ويكاد يكون من المقطوع به أيضاً أن فاسكو دي جاما قد اعتمد في عبور المحيط الهندي على الملّاحين العرب المنتشرين في إفريقيا دون أن ينتبه أحد إلى أن وصوله إلى الهند كان يعني النجاح في تطويق العالم الإسلامي.

المدنية تدخل في عداد المتصرّفيات التي ينوب فيها عن الملك متصرِّف (بايى أوسنيشال) يؤدّي باسمه الوظائف القضائية والإدارية، إلا أن هؤلاء المتصرفين الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الأرستوقراطية آثروا البقاء في حاشية الملك، أو آثر الملك إبقاءهم في حاشيته، فتركوا أعمالهم لنوّابهم، وكان أبو إيتيان دي لابويسيه أحد هؤلاء النوّاب. كان مؤلِّفنا -إذاً- ينتمي إلى عائلة ميسورة مثقَّفة. إلا أن أباه أدركه القَدَر وهو طفل فتولّى أمره عمُّه، وكان من رجال الكنيسة المتضلِّعين في اللاهوت والآداب، فنشأ إيتيان، الذي بدأت معالم ذكائه الخارق تتبين وهو لمّا يبلغ العاشرة، على تقديس «الإنسانيات» اليونانية واللاتينية. وساعد على محبَّته لها وتمرُّسه بها أن حركة النهضة قد قويت في سارلا بنوع خاص؛ إذ كان أسقفها كاردينال إيطالي (وهو الكاردينال نيقولو جادي) ربطت أواصر القرابة بينه وبين آل مديسيس الفلورنسيين، وانطبع تبحُّره بطابع المتأنِّس الإيطالي حتى إنه كان يحلم بأن يجعل من أسقفيته جمهورية للآداب والفنون مثلما كانت أثينا.

في هذا الوسط الراقي الثقافة انكبَّ لابويسيه على الدرس. ولا ندري على التحقيق بأيّة مدرسة التحق، ولكن الشيء المؤكَّد هو أن أساتذته قد لمسوا من نجابته ما يؤهِّله للالتحاق بالجامعة فوجَّهوه إليها. وكان أن التحق بجامعة أورليان التي تشهد سجلّاتها أنّ إيتيان دي لابويسيه قد جاءها لدراسة القانون تأهُّباً للاشتغال لا بالآداب، بل بالقضاء.

ولسنا نعجب لذلك كثيراً. فقد رأينا أن لابويسيه كان ينتسب إلى هذه الشريحة الاجتماعية التي كان يخرج منها القائمون بالأعمال العامة، ثم إن دراسة القانون نفسها كانت تصطنع منهجاً لا يختلف عن المنهج المتَّبع في دراسة النصوص الأدبية، وأعني به منهج التفسير النقدي الذي لا يقف عند بيان الفروق بين المذاهب والإحاطة بها، بل يتعدّاهما

إلى التفسير النحوي للصيغ التشريعية وتحليل مدلولات الكلمات واستعمالاتها ثم الاستعانة بالتاريخ توضيحاً لمرادها. فدراسة القانون كدراسة الإنسانيات كانت ـ في المحَلّ الأول ـ دراسة لغوية فيلولوجية (أي مُنصَبّة على النصوص) تستمدّ غذاءها من التفكير الفلسفي والبحث التاريخي ومن أعمال النقد والثقة بسلطان الحجّة والاستدلال. وكان هذا المنهج الذي يجعل من دراسة القانون جزءاً من الإنسانيات كدراسة الشعر والفلسفة هو المنهج المُتَّبع فعلاً في جامعة أورليان التي كانت تُعَدّ ثانية جامعات فرنسا بعد جامعة باريس. وإذا كانت شهرة مدرسة القانون فيها لا تعدل شهرة مدرسة بولونيا أو بادو بإيطاليا فقد كان لها أيضاً حظّ وافر من أساتذة القانون الفطاحل (يكفي أن نذكر منهم كوجا الذي لا يزال أحد شوارع الحَيّ اللاتيني يحمل اسمه حتى اليوم، والذي يرجع إليه الفضل في أن أعاد إلى القانون الروماني المعنى الذي كان له في المجتمع الذي وضع فيه)، ويجدر بالذكر أيضاً أن كالفن، اعظم رجال الإصلاح الديني بعد لوثر، قد درس فيها بين 1528 و 1533 م، وأن عدداً من زملاء لابويسيه في هذه الجامعة، وفي مقدمتهم هوتمان، قد صاروا من مشاهير هذه الحركة. ولا غرو في ذلك لما نعلمه من اتّفاق رجال الإصلاح والمتأنِّسين على هذه الدعوة: الرجوع إلى الأصول.

حصل لابويسيه على درجة الجامعة في 23 سبتمبر عام 1553م وحصل من الملك هنري الثاني على تصريح يبيح له شراء حق العمل قاضياً في برلمان بوردو[1] قبل بلوغ السنّ القانونية (الخامسة والعشرين) وبدأ ممارسة أعماله

1- بلغ من احتياج الملك فرنسوا الأول إلى المال أنه جعل الحصول على المناصب بالشراء، وإن لم يُعفِ ذلك طالب الوظيفة من الامتحان. هذا وكانت كلمة البرلمان تطلق على المحكمة، وكانت المحكمة نفسها مركَّباً قانونياً معقَّداً يضمّ عدّة «غرف» يتميَّز شاغِلو كل منها برداء خاص: أولها وأعلاها مرتبة الغرفة الكبيرة، أما الغرف التالية فكانت تنقسم ويتعدّد كل قسم منها بحسب الاحتياجات، كغرفة التحقيقات، وغرفة العرائض... إلخ. هذا وكان الأعضاء بعضهم من رجال الدين والبعض الآخر من المدنيين، ولكن الغلبة صارت للمدنيين مع مرور الزمن.

فيها بعد الامتحان في 17 من مايو عام 1554 م. فلما جاء مونتني ليعمل هو أيضاً قاضياً في هذه المحكمة عام 1557 م. انعقدت بين الرجلين الصداقة التي خَلَّد مونتني ذكرها في مقالاته. ولسنا نعلم في أي المنازعات قضى لابويسيه أو مونتني، ولكنا نعلم أن البرلمانات قد بدأت خلال القرن السادس عشر تشارك مشاركة ملحوظة في الحياة السياسية كان من جَرّائها أن اتَّخذ برلمان بوردو إزاء مآسي الصراع الديني المتصاعدة في جنوب فرنسا الغربي موقفاً اتَّسَم بالولاء للملكية وبالاستمساك بالعقيدة الكاثوليكية على السواء، أدّى بقضاته إلى اعتبار الهجنوت (وهو الاسم الذي أُطِلق على أشياع «كالفن» بفرنسا) هراطقة، فأوقعوا فيهم عقوبات ضارية بلغت الزجّ بهم في المحارق، ولكن المحارق لم تزد الحزازات الدينية إلا سعيراً. عندئذ أوفِد لابويسيه إلى باريس في مهمّة ظاهرها الاحتكام إلى مجلس الشورى الملكي في خلاف بين قضاة بوردو وسلطاتها البلدية، ولكن باطنها كان أدقّ وأعمق.

كان المَلِك،في هذا الوقت، (ديسمبر 1560 م) طفلاً في العاشرة. وكان زمام الحكم بيد أمِّه كاترين دي ميدديسيس وكان هَمّ هذه المرأة الإيطالية هو الحيلولة دون انقلاب الصراع الديني إلى حرب أهليّة تهدِّد النظام أو الملك كلّه. لهذا كانت تستمع طواعية إلى النصح الذي كان يسديه إليها مستشارها ميشل دي لوبيتال الذي قام لابويسيه بزيارته في باريس. وكان الرجلان -على اختلاف السن بينهما بما يبلغ ربع القرن- قد خُلِقا ليتفاهما: كلاهما ضليع في علوم القانون، وكاره لردّ القضاء إلى شكلياته، متحمِّس للإنسانيات، كما كان كلاهما مستقيم الخلق، صادقاً في وطنيته. فَكَلَّف ميشيل دي لوبيتال صديقه بأن يشرح لبرلمان بوردو الذي انتصر أعضاؤه للفريق الكاثوليكي المتعصِّب سياسة التسامح الديني التي كان يدعو إليها. ونجح لابويسيه أول الأمر في مهمَّته حتى كاد ينعقد لقاء وطني يضمّ رجال الدين من الطرفين، ويمهِّد لإخراج سياسة التسامح من مجال

النصح إلى حَيِّز التشريع، ولكن وضوح تفكيره وواقعيته سرعان ما أقنعاه بأن سياسة التسامح آيلة إلى الإخفاق لتوالي أعمال العنف من الجانبين. ومع هذا لم يتردَّد - حين ظهر مرسوم 17 يناير 1562 م القاضي بترك حرية العبادة لأشياع كالفن دون اعتبارهم هراطقة - في أن يكتب مُذَكِّرة شرح فيها النتائج المنحوسة التي تنجم عن المنازعات الدينية وبَيَّنَ -بنظر ثاقب- كيف يؤدّي الردع الدموي لا إلى القضاء على الأعداء بل إلى تفاقم العداوة تفاقماً يهدِّد البلاد بحرب أهليّة تحرم الدولة من صفوة العقول. وأغلب الظن أنه كان يفكِّر فيمن استشهد من أساتذته وأصدقائه. ثم لمّا بلغت المذابح مداها، وضاق لابويسيه برفض بعض قضاة بوردو الإذعان لكل نصح بالمسألة، كما ضاق بالانقسامات الدفينة التي تناهبت القصر الملكي نفسه كتب مذكِّرة في قانون يناير 1562 م لم ينكر فيها الكاثوليكية بما هي دين للدولة إلا أنه دعا إلى «كاثوليكية مستصلحة» تترك مجالاً للتوافق بين الكاثوليكية والبروتستانت.

بعد ذلك نزل به مرض لا نعلم هل كان الديسنتاريا أم الطاعون. فطلب نقله إلى أرض تملكها امرأته، ولكن المرض ألجأه إلى النزول عند صديق كانت تصله بمونتني أواصر المصاهرة، على بضع كيلومترات من بوردو. وفي 14 أغسطس أدرك دنوّ نهايته، فكتب وصيَّته تاركاً مكتبته لمونتني عنواناً على صداقته. وفي 18 أغسطس لفَظَ نَفَسَه الأخير ومونتني بجانبه.

لم يلبث مونتني أن نشر عام 1580 م مع الطبعة الأولى لكتابه الخالد مقالات وأعمال صديقه الأدبية. وكانت قسمين: شعر نظمه في مقتبل العمر، وترجمات عن المؤرِّخ اليوناني كسينوفون، منها الفصول الستة الأولى الاقتصادية من كتابه (وكانت تنسب إذ ذاك إلى أرسطو) وأخرى متعدِّدة عن بلوتارك، منها قواعد الزوج، ورسالة العزاء التي كتبها بلوتارك إلى زوجته تعزية لها في وفاة ابنتيهما. تبيّن في هذه الترجمات ما وصفناه

من ثقافة المتأنِّسين وتأدُّبهم الذي يتجلّى في شروحهم وتعليقاتهم وفي حرصهم الصبور على استعادة النصوص القديمة كاملة استناداً إلى مخطوطات منقوصة أو محرَّفة في كثير من الأحايين. ولكن مونتني لم ينشر أعمال صديقه النثرية لأنه رأى فيها -كما قال- «حياكة أدق وألطف من أن تخرج إلى الجو الخشن الثقيل الذي اتَّسَم به هذا الفصل الفاسد»، وهي عبارة تحوي إشارة إلى الصراع السافر الذي انتهت إليه العلاقة بين حركة الإصلاح الديني وبين الدولة (أي الملكية) والذي تجاوز الحَدّ الذي لا رجعة بعده بمذبحة الهجنوت[1] عام 1572. والراجح أن لابويسيه كان قد قرأ «مقال في العبودية المختارة» على بعض أقرانه بجامعة أورليان، وأن بعضهم نسخوه. ومنهم من كان أو (صار) من أشياع كالفن، فأدرجوا في كتاباتهم ومنشوراتهم التأليبية المتعاقبة مع تصاعد العداء واستحكامه مقتبسات تطول أو تقصر من هذا المقال. وهذا هو ما يقوله مونتني صراحة في صدد مقال لابويسيه على التحديد: «لقد عدلت عن إنزال هذا العمل بهذا المحَلّ لأني رأيته وقد خرج إلى الضوء منذ ذلك الحين (أي منذ مات صديقه)، ولغاية غير بريئة، وأخرجه الساعون إلى إشاعة الاضطراب بمدينتنا دون أن يتساءلوا أهم بذلك مصلحوها!، ومزجوه بكتابات أخرى من عجينهم». وبذا زجّوا لابويسيه في زمرة الكتّاب الذين أطلق عليهم اسم «أعداء الملوك»(موناركواك)، وجعلوا من «مقال في العبودية المختارة»[2] نصاً يستخدمه المجاهد السياسي لأغراضه. وأكاد أضيف: قبل أن يفهم غرضه. وربما كان هذا الشطط هو الذي دعا مونتني أن يهوّن بعض الشيء من مقال صديقه، فقال:

1- وهي المذبحة المعروفة بليلة القديس بارتوليمي. بدأت بقرع النواقيس من كنيسة سان جرمان دوكسروا في باريس.

2- مونتني، مقالات، الكتاب الأول، الفصل 28، والمراد بالواحد هنا هو الملك لأن الكلمة الأوروبية (مونارك) التي تترجم بـ(الملك) مشتقة من كلمتين يونانيتين تعنيان «حكم الواحد».

«وهو مقال خلع عليه اسم العبودية المختارة، ولكن مَنْ لا علم لهم بذلك أعادوا تعميده منذ ذلك الحين فسَمّوه «تهافت الواحد». كتبه على سبيل التمرين في مطلع شبابه»؛ وهي الثامنة عشرة (أي عام 1548) بحسب الطبعات الأولى من المقالات، وفي طبعة ظهرت عام 1593 وفقاً لتصحيح بيد مونتني هي السادسة عشرة - أي عام 1546. فبأي تاريخ نأخذ؟.

كانت الوحدة السكنية في الريف هي القرية التي خلق أهلها ليعملوا في الأرض المحيطة بهم دون أن يملكوها، وليعبدوا الله في الكنيسة المُشَيَّدة وسطها. لذا كانت القرية من حيث هي جماعة من الناس يشاركون العمل في الأمور التي تخصهم جميعاً (كتعبيد طريق أو بناء جسر أو فض نزاع أو تحديد الأرض المشتركة للرعي أو اتخاذ موقف مشترك إزاء مطلب جديد للنبيل... إلخ.) كانت تسمّى باسم المشتركية (كومين)، كما كانت تسمّى من وجهة الإدارة الكنسية، أو بما هي خلية روحية (الأبرشية)[1]. وكان النبيل يمتلك الأرض وما عليها، يملك ما حَلَّق في سمائها من الطير

وما شقَّها من الطرق والأنهار، وكان يقتطع أجزاء من هذه الأرض لمن وهب نفسه لخدمته بسيفه من الفرسان، وإن غلب أن يكون ذلك في صورة الحيازة لا التمليك. أما الفلاحون فكانوا يعملون في خدمة النبلاء والفرسان بمحاريثهم ومناجلهم، يعيشون بما يبقى لهم من المحصول بعد أن يأخذ هؤلاء حصَّتهم، وحتى هذا المتبقّي كانت تثقله شتى الضرائب المباشرة وغير المباشرة، لهذا ازدحم تاريخ العصور الوسطى بالثورات الشعبية (بالمعنى الذي لا تعني فيه كلمة الشعب أهل البلد كله

1- ويل للبلاد التي خَيَّم عليها سلطان الدولة قبل أن تخوض شعوبها - لعوائق جغرافية وتاريخية - مثل هذه التجربة في التضامن على المصالح التي عرفتها أوروبا في شكل المتجسديات في المدن، والمشتركيات في الريف.

بل المستضعفين منهم) التي انتشرت في أوروبا خلال الفترة بين 1330 و1420 بنوع خاص، حتى صار لكلمة «المشتركية» معنيان: معنى الوحدة الإدارية، ومعنى الثورة أو الانتفاضة. وكان أهمّ هذه الثورات وأشهرها الثورة التي وقعت في المنطقة التي تقع فيها باريس (ايل دي فرانس) والتي عرفت باسم صار يطلق بعد ذلك على جميع هذه الثورات: جاكري (نسبة إلى جاك وهو أكثر الأسماء شعبية). وفي عام 1548، أي حين كان لابويسيه في الثامنة عشرة من عمره اندلعت في لاجوين (وهي الإقليم الذي نشأ فيه مؤلِّفنا وعمل قاضياً بعاصمة بوردو) ثورة اجتاحت جنوب فرنسا كله. ثورة كانت لا تختلف من حيث وصفها عن سابقاتها، فهي أيضاً كانت «جاكري» ولكنها من حيث دلالتها قد ألفت حدثاً جديداً كل الجدّة، بدأت به صفحة جديدة في تاريخ ثورات الفلاحين في أوروبا، صفحة لم تنتهِ إلا بانتهاء الحياة القروية نفسها في شكلها المعهود، مع تقدُّم المدنية الصناعية خلال القرن التاسع عشر، ذلك أنها كانت تختلف عن سابقاتها من وجهين:

1 - لم تكن مقصورة على الفلاحين وحدهم، بل انضمَّ إليهم بعض أهل المدن الذين مكَّنهم ثراؤهم من شراء الأرض والاشتغال بزراعتها.

2 - لم تكن ثورة على نبيل أو عدد من النبلاء بل ثورة في وجه الدولة، فقد فرض الملك فرانسوا الأول عام 1541 ضريبة على الملح، وهي ضرورة حيوية لحاجة الفلاحين إليه لتجفيف اللحوم تهيُّؤا للشتاء، فبدأت هنا وهناك حركات من التمرُّد استفحلت استفحالاً شمل المنطقة كلها عام 1548. فلم يكتفِ الفلاحون بطرد جباة الملح الممقوتين، بل تعقَّبوهم إلى المدن حيث ديارهم ومراكز عملهم، فحاصروا بعضها، واستولوا على البعض الآخر بينها مدينة بوردو نفسها. وهناك أوقعوا الموت بكل من رأوه من الجباة أو توهَّموا أنه منهم. ثم بعد ذلك اجتمعت حشودهم

ببعض المنازل الفسيحة أو بالميادين العامة كيما يحرِّروا عرائض إلى الملك (وكان إذ ذاك هنري الثاني) وكلّفوا بعض الأعيان –سواء أشاءوا أم لم يشاءوا –برفعها إلى جلالته، فكان الردّ وعداً برفع شكاوى رعاياه اكتفوا به فتفرَّقوا. وفعلاً رفعت الضريبة في سبتمبر عام 1549. ولكن بعد أن أرسل اليهم الملك جيشاً رادعاً نشر الرعب في الإقليم، ونكَّل بأهله شرَّ تنكيل: حَلّ برلمان بوردو، وتسريح قضاته، وإلغاء امتيازاته. ولا نتحدثَنّ عن الإرهاب الدموي فقد بلغ من قُتِلوا على سبيل «التأديب» مئة وخمسين رجلاً. ومنه تَتَّضح الحدود التي تحرَّك في نطاقها المتمرِّدون. فهم لا يفكّرون في المساس بسلطة الملك، بل يحتكمون إليه: فالملك «أمير» وعادل، إنه يجهل مِحَن الشعب التي يخفيها عنه وزراء السوء، فأما هم فما اجتمعوا وتسلَّحوا إلا بمشيئة الله، وما مقتوا إلا الجباة العاتين، وما كرهوا ضريبة الملح إلا لأنها «بدعة». فالأحداث قد دارت وكأن ثوّارنا كان يصلهم حبل سرّي بمَثَل أعلى من الطيبة والرحمة لا يتوقَّعون منه إلا العدل والمحبة، فإن كذَّب الواقع توقُّعهم آثروا تكذيب الواقع والإمساك بمَثَلِهم الأعلى. ولا شكّ أن لابويسيه قد تابع هذه الأحداث وأن هذه الظاهرة قد استوقفته: أن نرى شعباً بأسره (الشعب الذي ينتمي إليه) ينزِّه عن القسوة من تقع بأمره أقصى القسوة ! وأقول لا شك لأنه ذكر هذه الظاهرة صراحة وإن خلا مقاله من كل إشارة إلى الأحداث التي أملت سؤاله. ولا أشكّ –إذاً– في أن لابويسيه قد كتب العبودية المختارة وهو في الثامنة عشرة من عمره بعد ثورة الفلاحين، لا تعبيراً عن سخطه على منطق الدولة بما هو منطق العدالة الإرهابية، بل لأن اخفاق هذه الثورة قد جعله يلمس شيئاً من حدود المشروع الثوري. أهذا كل ما نستطيع قوله؟.

إن العبودية المختارة نصّ حلَّق كاتبه في آفاق البلاغة تحليقاً جعل

سانت بيف لا يرى فيه إلا أنموذجاً لامعاً لما يكتبه الطالب النابغ في فصل البلاغة. ومعنى هذا الرأي أن النص المذكور غير ذي موضوع أو ـ بالأدق ـ أن الموضوع فيه ليس إلا مناسبة يستغلّها الطالب ليبدي تمكُّنه مما تعلَّمه على مقاعد الدرس. غير أن سانت بيف هذا كان مثالاً فاضحاً على ما كان يسمّى (الناقد الأدبي) أي رجلاً همُّه الأوَّل الحكم والقضاء على ما يقرأ - لأن الحكم والقضاء يضيفان الجاه - لا أن يتفهَّم ويتعلَّم. ولكننا سوف نرى أن هذا التحليق البلاغي إنما كان أحسن السبل التي توسَّل بها الكاتب - وتلك ثقافته وثقافة قارئه - إلى تصوير ما لمسه من الواقع. وأعني بذلك أن لابويسيه ينمّ فكره عن واقعية ندر أن تتحقَّق، ولا يخلو تحقُّقها لدى شاب في الثامنة عشرة من الغرابة. لهذا كنت أرجِّح أنه إنما رمى الرمية الأولى وهو بهذه السن، ولكنه لم ينتهِ من الاشتغال بالمقال إلا في سنتَيْ دراسته بجامعة أورليان بين 1553 و 1555 مستعيناً بمناقشاته مع أقرانه، إذ، بالمناقشة، تتبين الأفكار وإن لم تَتَّفق، وبما اكتسبه من الإحاطة بعلوم القانون والتاريخ على أيدي أساتذته.

هذا عن تاريخ كتابة هذا المقال. ننتقل الآن إلى الحديث عن مصيره.

***



مقالة في

العبوديّة المختارة

«كثرة الأمراء سوء، كفى سيِّد واحد، ملك واحد» [1].

بهذه الكلمات خاطب أوليس القوم في هوميروس. ولو أنه وقف عند قوله: «كثرة الأمراء سوء» لأحسن القول بما لا مزيد عليه. لكنه حيث وجب تعليل ذلك بالقول بأن سيطرة الكثيرين لا يمكن أن يأتي منها الخير ما دامت القوة المسندة إلى واحد، متى تسمّى باسم السيد صعبة الاحتمال منافية للمعقول، راح يعكس الكلام، فأضاف: «كفى سَيِّد واحد، ملك واحد».

بيد أن أوليس ربما وجبت معذرته؛ إذ لم يكن له مفرّ من استخدام هذه اللغة حتى يهدِّئ ثورة الجيش مطابقاً بمقاله المقام بدل مطابقة الحقيقة. فإن وجب الحديث عن وعي صادق فإنه لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيِّد واحد، يستحيل الوثوق بطبيعته أبداً ما دام السوء في مقدوره متى أراد، فإن تعدّدَ الأسياد تعدّدَ البؤس الذي ما بعده بؤس بقدر ما نملك منهم. وما أريد في هذه الساعة طرق هذه المسألة التي كثر الجدل

فيها: إذا ما كانت أشكال الجمهورية [2] الأخرى تفضِّل حكم الواحد[3]. ولو أردت لوددت قبل النظر في مكانة هذا الحكم بين الأشكال الأخرى أن أعرف أولاً هل له مكانة ما، لأن من الصعب الاعتقاد ببقاء شيء يخصّ الجماعة حيث ينفرد واحد بكل شيء، ولكن هذه مسألة متروكة لوقت آخر، وتقتضي مقالاً يفرد لها، وإلا جلبت معها جميع المنازعات السياسية.

فأما الآن فلست أبتغي شيئاً إلا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس، من البلدان، من المدن، من الأمم أن يحتملوا أحياناً طاغية واحداً لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه، ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه، ولا كان يستطيع إنزال الشرّ بهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته. إنه لأمر جلل حقاً –وإن انتشر انتشاراً أدعى إلى الألم منه إلى العجب– أن نرى الملايين من البشر يخدمون في بؤس، وقد غُلّت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر، بل هم(فيما يبدو) قد سحرهم وأخذ بألبابهم مُجَرَّد الاسم الذي ينفرد به البعض، كان أولى بهم ألا يخشوا جبروته، فليس معه غيره، ولا أن يعشقوا صفاته، فما يرون منه إلا خُلوَّه من الإنسانية ووحشيَّته. إن ضعفنا نحن –البشر –كثيراً ما يفرض علينا طاعة القوة ونحن محتاجون إلى وضع الرجاء في الأرجاء ما دمنا لا نملك دائماً أن نكون الأقوى. فلو أن أمة أجبرت بقوة الحرب على أن تخدم واحداً(مثل أثينا الطغاة الثلاثين)[4] لما وجب الدهش لخادِمِيّتِها بل الرثاء لنازلتها، أو بالأحرى ما وجب الدهش ولا الرثاء بل الصبر على المكروه والتأهُّب لمستقبل أفضل.

إن من شأن طبيعتنا أن تستغرق واجبات الصداقة المشتركة بيننا قسطاً لا بأس به من مجرى حياتنا. فمن العقل محبة الفضيلة وتقدير الأعمال الجليلة وعرفان الفضل من حيث تلقيناه، والاستغناء أحياناً عن بعض ما

فيه راحتنا لنزيد به شرفاً وامتيازاً من نحبّ ومن استحق هذا الحبّ. فلو أن بلداً رأى سكانه كبيراً منهم يبدي بالبرهان فطنة كبيرة في نصحهم وجرأة شديدة في الدفاع عنهم، وترَوِّياً جَمّاً في حكمهم، فانتقلوا من ذلك إلى طاعته وإسلام قيادهم له إلى حدّ إعطائه ميزات دونهم فما أدري: أهي حكمة أن ينقلوه من حيث كان يسدي الخير إليهم إلى حيث يصبح الشر في مقدوره؟ إن التخلّي عن خشية الشرّ ممن لم نلق منه إلا الخير لحكمة لو كان محالاً ألا يخالط طيبته نقص.

ولكن ما هذا يا ربي؟ كيف نسمّي ذلك؟ أيّ تعس هذا؟ أيّة رذيلة، أو بالأصدق، أيّة رذيلة تعسة أن نرى عدداً لا حصر له من الناس لا أقول يطيعون بل يخدمون، ولا أقول يُحكمون بل يُستَبدّ بهم، لا ملْك لهم ولا أهل ولا نساء ولا أطفال بل حياتهم نفسها ليست لهم ! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من جيش ولا من عسكر أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضدّه، بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون بل خنث[5]، هو في معظم الأحيان أجبن من في الأمة وأكثرهم تأنُّثاً، لا ألفة له بغبار المعارك بل بالرمل المنثور على الحلبات(إن وَطِئَها) ولا يحظى بقوة يأمر بها الناس، بل يعجز عن أن يخدم ذليلاً أقل تأنُّثاً[6]؟ أنسمّي ذلك جبناً؟ أنقول أن خدّامه حثالة من الجبناء؟ لو أن رجلين، لو أن ثلاثة أو أربعة لم يدافعوا عن أنفسهم ضدّ واحد لبدا ذلك شيئاً غريباً، لكنه بعد ممكن، ولوسعنا القول عن حق إن الهمة تنقصهم. ولكن لو أن مئة، لو أن ألفاً احتملوا واحداً ألا نقول: إنهم لا يريدون صده ليس لأنهم لا يجرأون على الاستدارة له، لا عن جبن،بل احتقاراً له في الأرجح واستهانة بشأنه؟ فأما أن نرى لا مئة ولا ألف رجل بل مئة بلد، ألف مدينة، مليون رجل، أن نراهم لا يقاتلون واحداً أقصى ما يناله من حسن معاملته أيٌّ منهم هو القنانة والرقّ، فأنّى لنا باسم نسمّي به ذلك؟

أهذا جبن؟ إن لكل رذيلة حدّاً تأبى طبيعتها تجاوزه. فلقد يخشى اثنان واحداً، ولقد يخشاه عشرة. فأما ألف، فأما مليون. فأما ألف مدينة إن هي لم تنهض دفاعاً عن نفسها في وجه واحد فما هذا بجبن لأن الجبن لا يذهب إلى هذا المدى، كما أن الشجاعة لا تعني أن يتسلَّق امرؤ وحده حصناً أو أن يهاجم جيشاً أو يغزو مملكة! فأيّ مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذي لا يستحق حتى اسم الجبن، ولا يجد كلمة تكفي قبحه، والذي تنكر الطبيعة صنعه، وتأبى اللغة تسميته؟

ضع، في جانبٍ، خمسين ألف رجل مدجَّجين بالسلاح. وضع مثلهم في الجانب الأخر. دعهم يصطفّون للمعركة، ثم يلتحمون. بعضهم أحرار يقاتلون دفاعاً عن حرّيَّتهم والبعض الأخر بغية سلبهم إياها. ترى من تظنك تَعِدُ بالنصر؟ من تظن أنهم ذاهبون إلى ساحة القتال بخطى مقدامة؟ أَهُم مَنْ يأملون الاحتفاظ بحرّيتهم جزاءً على عنائهم؟ أم أولئك الذين سواء أكالوا الضربات أم تلقّوها لم ينتظروا أجراً عليها سوى استعباد الغير؟ الأولون يضعون دائماً نصب أعينهم سعادة الحياة الماضية وتوقُّع نعيم يماثلها في المستقبل، ولا يفكرون في القليل الذي تلزم مكابدته زمن المعركة، بقدر ما يفكرون فيما سيُفرض عليهم أبد الدهر، هم وأولادهم وجميع ذريتهم. أما الأخرون فلا حافز لهم إلا وخز من الطمع لا يلبث أن يسكن أمام الخطر، ولا يمكن أن يبلغ التهابه حدّاً لا تطفئه أول قطرة من الدم تنضّ بها جروحهم. خذ المعارك المشهودة التي خاضها ميلسيادس، وليونيداس، وثميستوكل منذ ألفي عام[7]، والتي ما زالت تحيا في صفحات الكتب وذاكرة البشر حتى اليوم؛ كأن رحاها لم تدر إلا بالأمس على أرض الإغريق، من أجل الإغريق ومن أجل أن تكون مثلاً للدنيا قاطبة: ما الذي –في زعمك– أعطى فئة قليلة قلة الإغريق إذ ذاك لا أقول القوة بل الجرأة على الصمود في وجه أساطيل بلغ من حشدها أن

ناء بثقلها البحر، وعلى أن يدحروا أمماً بلغ من كثرتها أن كتيبة الإغريق بأسرها ما كان يكفي جنودها تزويد أعدائها ولو بالقوّاد ليس غير؟ ماذا سوى أن المعركة لم تكن في هذه الأيام المجيدة معركة الإغريق ضد الفرس، بقدر ما كانت تعني انتصار الحرية على السيادة، وانتصار العتق على جشع الاسترقاق؟

إنّا ندهش إذ نسمع قصص الشجاعة التي تملأ بها الحرية قلوب المدافعين عنها. أما ما يقع في كل بلد لكل الناس كل يوم: أن يقهر واحد الألوف المؤلّفة، ويحرمها حرّيّتها، فمن ذا الذي كان يسعه تصديقه لو وقف عند سماعه دون معاينته؟ ولو أن هذا القهر لم يكن يحدث إلا في بلد أجنبي وأرض قاصية، ثم تردَّد نبأهُ أكان أحد يتردَّد في ظنِّه كذباً وافتراء لا حقيقة واقعة؟ ومع هذا فهذا الطاغية لا يحتاج الأمر إلى محاربته وهزيمته، فهو مهزوم خلقة، بل يكفي ألا يستكين البلد لاستعباده. ولا الأمر يحتاج إلى انتزاع شيء منه، بل يكفي الامتناع عن عطائه. فللبلد -إذا أراد -ألا يتحمَّل مشقّة السعي وراء ما فيه منفعته، كل ما يقتضيه الأمر هو الإمساك عما يجلب ضرره. الشعوب -إذاً- هي التي تترك القيود تكبِّلها، أو قل إنها تكبِّل أنفسها بأنفسها ما دام خلاصها مرهوناً بالكَفّ عن خدمته. الشعب هو الذي يقهر نفسه بنفسه، ويشقّ حلقه بيده. هو الذي ملك الخيار بين الرقّ والعتق، فترك الخلاص وأخذ الغلّ. هو المنصاع لمصابه، أو (بالأصدق) يسعى إليه. فلو أن الظفر بحرّيّته كان يكلِّفه شيئاً لوقفت عن حثِّه: أليس أوجب الأمور على الإنسان أن يحرص أكبر الحرص على حقِّه الطبيعي[8]، وأن يرتدّ عن الحيوانية ليصبح إنساناً؟ ولكنني لا أطمع منه في هذه الجرأة، ولا أنا أنكر عليه تفضيله نوعاً آمناً من أنواع الحياة التعسة على أمل غير محقَّق في حياة كريمة. ولكن! ولكن، إذا كان نوال الحرية لايقتضي إلا أن نرغب فيها، وكان يكفي فيه أن نريد، أكُنّا نرى

على وجه الأرض شعباً يستفدح ثمناً لا يعدو تمنّيها، أو يقبض إرادته عن استرداد خير ينبغي شراؤه بالدم، ويستوجب فقدُه على الشرفاء أن تصبح الحياة مُرّةً عندهم والموتُ خلاصاً؟ إن الشرارة تستفحل نارها وتعظم، كلما وجدت حطباً زادت اشتعالاً، ثم تخبو وحدها دون أن نصبّ ماء عليها، يكفي ألا نلقي إليها بالحطب كأنها إذا عدمت ما تُهلِك، تُهلِك نفسها، وتُمسي بلا قوة، ولم تَعُدْ ناراً. كذلك الطغاة كلما نهبوا طمعوا، كلما دَمَّروا وهدموا، وكلما موّناهم وخدمناهم زادوا جرأة، واستقووا، وزادوا إقبالاً على الفناء والدمار. فإن أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا - بلا حرب ولا ضرب - عرايا مكسورين لا شبيه لهم بشيء إلا أن يكون فرعاً عدمت جذوره الماء والغذاء فجفّ وذوى.

إن الشهام لا يخشون الخطر من أجل الظفر بمطلبهم، كما أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقّة. أما الجبناء والمغفَّلون فلا يعرفون احتمال الضرر ولا تحصيل الخير، وإنما يقفون عند تمَنّيه، يسلبهم الجبنُ قوة العمل عليه، فالرغبة في امتلاكه إنما تلصق بهم بحكم الطبيعة. هذه الرغبة، هذه الإرادة الفطرية أمر يشترك فيه الحكيم والملتاث، ويشترك فيه الشجاع والجبان، به يودّون تلك الأشياء التي يجلب اكتسابها السعادة والرضى. شيء واحد لا أدري كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه: الحرّيّة التي هي مع ذلك الخير الأعظم والأطيب، حتى إن ضياعها لا يلبث أن تتبعه النواكب تترى، وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه وطعمه. الحرّيّة وحدها هي ما لا يرغب الناس فيه. لا لسبب، فيما يبدو، إلا لأنهم لو رغبوا لنالوها، حتى لكأنهم إنما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته.

يا لذلّ شعوب فقدت العقل! ويا لبؤسها! يا لأمم أمعنت في آذاها وعميت عن منفعتها! تُسلبون أجمل مواردكم وأنتم على السلب عيان،

تتركون حقولكم تُنهب ومنازلكم تُسرق وتُجرّد من متاعها القديم المورث عن آبائكم ! تحيون نوعاً من الحياة لا تملكون فيه الفخر بملْك ما، حتى لكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقي لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم، وكل هذاالخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم يقيناً على يد العدو الذي صنعتم أنتم كبره، والذي تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله، ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصكم في سبيل مجده. هذا العدو الذي يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد[9]، ولا يملك شيئاً فوق ما يملكه أقلّكم على كثرة مدنكم، التي لا يحصرها العَدّ إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنّى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكفّ التي بها يصفعكم إن لم يستمدّها منكم؟ أنّى له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقوَ بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماة للصّ الذي ينهبكم، شركاء للقاتل الذي يصرعكم، خونة لأنفسكم؟ تبذرون الحب ليُذْريه. تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى تعظم سرقاته. تربّون بناتكم كيما يجد ما يشبع شهواته. تنشئون أولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرّهم إلى حروبه، وسوقهم إلى المجزرة، ولكي يصنع منهم وزراء مطامعه ومنفِّذي رغباته الانتقامية. تتمرَّسون بالألم كيما يترفَّه في مسرّاته ويتمرَّغ في ملذّاته القذرة، وتزيدون وهناً ليزيد قوة وشراسة ويَسِمَكم بلجامه. كل هذه الألوان من المهانة التي إما البهائم لا تشعر بها، أو ما كانت تحتملها، يسعكم الخلاص منها لو حاولتم لا أقول العمل عليه، بل محض الرغبة فيه، اعقدوا العزم ألا تخدموا تصبحوا أحراراً. فما أسألكم مصادمته أو دفعه بل محض الامتناع عن مساندته. فترونه كتمثال هائل سُحِبت قاعدتُه فهوى على الأرض بقوّة وزنه وحدها، وانكسر.

بيد أن الأطباء محقّون- بلا شك- إذ ينهون عن لمس الجروح التي لا برء منها، ولا أظنني أسلك مسلكاً حكيماً إذا أردت أن أسدي هنا الموعظة إلى الشعب بعد أن فقد كل معرفة منذ أمد طويل، وصار فقدان حساسيته بالألم دليلاً كافياً على أن مرضه قد صار مميتاً. لنحاول، إذاً، أن نتبين- لو أمكن ذلك- كيف استطاعت جذور هذه الإرادة العنيدة، إرادة العبودية، إلى هذا المدى البعيد حتى صارت الحرية نفسها تبدو اليوم كأنها شيء لا يمتّ إلى الطبيعة بسبب.

أولاً، إنه لأمر لا أظن الشكّ يتطرّق إليه أننا لو كنا نعيش وفاقاً للحقوق الممنوحة لنا من الطبيعة والدروس التي تُلقِّننا إياها، لكنّا طيّعين للوالدين بالطبع، خاضعين للعقل، غير مسخّرين لأيّ كان. فالطاعة التي يحملها كل منا لأبيه وأمه دون أن يهديه إليها إلا صوت الطبيعة أمرّ الناس جميعاً شهود عليه؛ كلّ عن نفسه. فأما العقل، وهل يولد معنا أم لا، فمسألة تقارع فيها الأكاديميون[10]، ولم تتخلَّف مدرسة من المدارس الفلسفية عن الخوض فيها، ولا أظنني أجانب الصواب، الآن، إذ أقول إن في نفوسنا بذرة طبيعية من العقل تزدهر في شكل الفضيلة، إذا تعهَّدناها بالنصيحة الطيِّبة والقدوة الحسنة، ولكنها- على العكس- كثيراً ما تغلبها الرذائل فتخمد وتنفق. غير أن الشيء المحقَّق هو أنه إذا كان في رحاب الطبيعة شيء واضح باد للعيان، ولا يجوز أن نعمى عنه فذلك أن الطبيعة وهي وزيرة الخالق وآمرة الخلق قد سَوَّتنا جميعاً على شبه واحد حتى لكأنها،-إذا جاز التعبير- قد صَبَّتْنا في القالب ذاته، وذلك حتى يعرف في الآخرين رفاقه أو بالأصدق إخوته. وإذا كانت الطبيعة وهي توزِّع هباتها قد أسبغت على البعض مزية جسدية أو عقلية، وإذا كانت- رغم ذلك- لم تتركنا في هذه الدنيا كأننا في حقل مغلق، ولم تفوِّض الأقوياء والمَكَرة بافتراس الضعفاء كقطّاع طرق أُطلِق سراحُهم في الغابة، فذلك

دليل على أنها إذا أعطت البعض نصيباً أكبر، والبعض الأخر نصيباً أصغر، لم تكن تهدف إلا إلى أن تترك المجال للتعاطف الأخوي حتى يظهر وجوده ما دام البعض يملك قوّة العطاء، والبعض الآخر الحاجة إليه. فإذا كانت هذه الأمّ الطيّبة قد جعلت لنا من الأرض قاطبة سكناً، وأنزلتنا جميعاً المنزل نفسه، وهيّأَتْنا على أنموذج واحد كيما يتسنّى لكل منّا أن يتأمّل نفسه، ويقترب من معرفتها في مرآة الآخرين، وإذا كانت قد وهبتنا جميعاً تلك الهبة الكبرى، هبة الصوت والكلام حتى نزيد تعارفاً وتآخياً، وحتى تتلاقى إرادتنا بالإعراب المتبادل عن أفكارنا، وإذا كانت قد جهدت بكل السبل حتى نزيد توثّق عُرى التحالف والاجتماع بيننا، وإذا كانت قد بَيَّنَت في كل ما تصنع أنها لا تهدف إلى توحيدنا جميعاً بقدر ما تهدف إلى أن نكون جميعاً آحاداً، فقد ارتفع بذلك كل شيء في أننا جميعاً أحرار بالطبيعة، ما دمنا رفاقاً، وامتنع أن يدخل في عقل عاقل أن الطبيعة قد ضربت علينا الرقّ بينما هي قد آلفت بيننا.

غير أن الحقيقة هي أن الجدل فيما إذا كانت الحرية حقاً طبيعياً أم لا لن يكون إلا تحصيلاً للحاصل ما دمنا لا نسترقّ كائناً دون أن نلحق الأذى به، وما دام الغبن أكره الأشياء إلى الطبيعة التي هي مستودع العقل. إذاً، يبقى أن الحرّيّة شيء طبيعي، ويبقى بهذا عينه أننا(فيما أرى) لا نولد أحراراً وحسب، بل نحن أيضاً مفطورون على محبّة الذود عنها. فإن اتُّفق بعد ذلك أن ساورنا شكٌّ فيما أقول، وأن بلغ من فسادنا أننا لم نعد نستطيع تمييز مصالحنا، ولا مشاعرنا الطبيعية، لم يبق إلا أن أكرمكم الإكرام الذي تستحقّون، وأن أترك الحيوانات التي لا تمتّ إلى المدنية بِصِلة تصعد المنبر لتعلِّمكم ما هي طبيعتكم، وما وضع وجودكم. إن الحيوانات (أخذ الله بعوني!) إذا البشر لم يصمّوا آذانهم لسمعوها تصرخ فيهم: عاشت الحرية ! الكثير منها لا يكاد يقع في الأسر إلا مات.

فكما السمك يترك الحياة حين يترك الماء، كذلك هي تترك الضوء وتأبى العيش بعد فقدان حرّيّتها الطبيعية. فلو كانت لها مراتب لجعلت من الحرّيّة عنوان نبالتها. فأما البقية من أكبرها إلى أصغرها، فهي لا تستسلم للأَسْر حين نقتنصها إلا بعد أن تظهر أشد المقاومة بالأظافر، والقرون، والمناقير، والأقدام، معلنة بذلك مدى إعزازها لما تفقد. ثم هي تبدي لنا العلامات الجليّة على مدى إحساسها بمصابها حتى إننا لنعجب إذ نراها تؤثر الضوى على الحياة، كأنها إنما تقبل البقاء لترثي ما خسرت لا لتنعم بعبوديَّتها. هل يقول الفيل شيئاً آخر حين يقاتل دفاعاً عن نفسه حتى يستنفذ قواه، ويرى ضياع الأمل وشوك الأَسْر، فإذا هو يغرس فكَّيه محطِّماً على الشجر سِنَّيْه؟ هل يقول شيئاً آخر سوى أن رغبته الشديدة في البقاء حُرّاً تلهمه الذكاء، فتحثّه على مساومة قنّاصيه لعلَّهم يتركون له الحرية ثمناً لعاجه، ولعله يفتدي به حريته؟ إننا نستأنس الجياد منذ مولدها لندرِّبها على خدمتنا، فإذا كنّا مع ذلك حين نجيء إلى ترويضها نعجز عن ملاطفتها إلى الحَدّ الذي لا يجعلها تعضّ الحَكَمَة، وتنفر من المهماز، فما هذا في اعتقادي إلا شهادة منها بأنها إنما تقبل خدمتنا كارهة لا مختارة. ما القول -إذاً- «**حتى البقر أَنَّ تحت النير/ وشكا في أقفاصه الطير**» كما عَنَّ لي قوله حين شغلني فيه نَظْمنا الفرنسي[11]؟ لأني وأنا أكتب إليك يا لُونجا[12] مازجاً بالكلام أشعاري التي لا أقرأها أبداً، لا أخشى قطّ أن يجرّك ما تبديه من الرضا عنها إلى جعلها مدعاة لفخري.

خلاصة القول أنه لَمَّا كانت جميع الكائنات الحاصلة على الحسّ تشعر إذ تحصل عليه بألم خضوعها، وتسعى وراء حرّيَّتها، ولَمّا كانت الحيوانات، وهي المجعولة لخدمة الإنسان، لا تستطيع أن تألف العبودية دون أن تبدي احتجاجاً يعرب عن الرغبة في الضدّ، فما هي تلك الرذيلة التي استطاعت أن تمسخ طبيعة الإنسان، وهو وحده المولود حقيقة ليعيش حُرّاً، وأن تجعله ينسى ذكرى وجوده الأول، وينسى الرغبة في استعادته؟

هناك ثلاثة أصناف من الطغاة: البعض يمتلك الحكم عن طريق انتخاب الشعب، والبعض الآخر بقوة السلاح، والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم. فأما من انبنى حقُّهم على الحرب فنعلم جيداً أنهم يسلكون، كما نقول، في أرض محتلّة. وأما من وُلدوا ملوكاً فهم عادة لا يفضلون قط لأنهم وقد ولدوا وأطعموا على صدر الطغيان، يمتصون جبلة الطاغية وهم رضاع، وينظرون إلى الشعوب الخاضعة لهم نظرتهم إلى تركة من العبيد، ويتصرَّفون في شؤون المملكة كما يتصرَّفون في ميراثهم، كل بحسب استعداده الغالب نحو البخل أو البذخ. أما من وَلّاه الشعب مقاليد الدولة، فينبغي فيما يبدو أن يكون احتماله أهون. ولقد يكون الأمر كذلك- على ما أعتقد- لولا أنه ما إن يرى نفسه يرتقي مكاناً يعلو به الجميع، وما إن يستغويه هذا الشيء الغريب المسمّى بالعظمة، حتى يعقد النية على ألا ينزاح من مكانه قطّ. وما إن يتلقَّف هؤلاء هذه الفكرة حتى نشهد شيئاً عجباً: نشهد إلى أيّ مدى يبزّون سائر الطغاة في جميع أبواب الرذائل، بل في قسوتهم، دون أن يروا سبيلاً إلى تثبيت دعائم الاستبداد الجديد، سوى مضاعفة الاستعباد وطرد فكرة الحرّيّة عن أذهان رعاياهم، حتى يعفو عليها النسيان رغم قرب حضورها في ذاكرتهم. فكلمة الحق هي أني أرى بعضاً من الاختلاف بين الطغاة، ولكني لا أرى اختياراً بينهم، لأن الطرق التي يستولون بها على زمام الحكم تكاد لا تختلف: فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كأنه ثور يجب تذليله، والغزاة كأنه فريستهم، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلكوه امتلاكاً طبيعياً.

فَهَبْ في هذا الموضع أن الصدفة شاءت أن يولد نمط جديد من البشر، لا ألفة لهم بالعبودية ولا ولع بالحرية، ولا يعلمون ما هذه ولا تلك، بل يجهلون حتى اسميهما، ثم خُيِّروا بين الرقّ وبين الحياة أحراراً، فعلامَ يجمعون؟ لا مجال للشكّ في أنهم سوف يؤثرون طاعة العقل وحده على

خدمة رجل ما، هذا إلا إذا كان هؤلاء القوم هم شعب إسرائيل الذي نصَّبَ طاغياً عليه بغير إكراه ولا احتياج: وإنه لشعب لا أقرأ قصته أبداً دون أن يملكني حنق عظيم حتى لأكاد أتجرَّد من الإنسانية فأفرح بجميع ما نزل عليه بعدئذ من البلايا[13]. ولكن، طالما بقي بالإنسان أثر من الإنسان فهو- يقيناً- لا ينساق إلى العبودية إلا عن أحد سبيلين: إما مكرهاً وإما مخدوعاً. مكرهاً إما بسلاح أجنبي مثل مدينتَيْ إسبرطة وأثينا، إذ قهرتهما قوات الإسكندر، وإما بطائفة من مجتمعه، مثلما حدث في أثينا في زمن أسبق حين استولى بيسيسترانس على مقاليد الحكم[14]. فأما الخديعة من حيث تؤدّي أيضاً إلى فقدان الحرّيّة فمرجعها إلى تغرير الغير في أكثر الأحيان من مرجعها إلى كون الناس يخدعون أنفسهم بأنفسهم. مثال ذلك شعب سيراقوصة(عاصمة صقيلة) إذ هجم عليه الأعداء من كل جانب، ولها فكرُه عن كل شيء إلا عن الخطر الحاضر، فَرَفع ديونيسيوس إلى الرياسة دون نظر إلى المستقبل، وأسند إليه قيادة الجيش، ولم يدرك إلى أي حَدّ قوّاه إلا حين رجع هذا الداهية منتصراً كأنه قد غزا مواطنيه لا أعداءهم، فتسمّى باسم القائد، ثم الملك، ثم الملك المطلق[15]. وإنه لأمر يصعب على التصديق أن نرى الشعب متى تَمَّ خضوعه، يسقط فجأة في هاوية من النسيان العميق لحرّيّته إلى حَدّ يسلبه القدرة على الاستيقاظ لاستردادها، ويجعله يسرع إلى الخدمة صراحة وطواعية حتى لَيُهَيَّأُ لمن يراه أنه لم يخسر حريته، بل كسب عبوديته. صحيح أن الناس لا يقبلون على الخدمة في أول الأمر إلا جبراً وخضوعاً للقوة، ولكن من يأتون بعدهم يخدمون دون أن يساورهم أسف، ويأتون طواعية ما أتاه السابقون اضطراراً. ذلك أن من ولدوا وهم مغلولو الأعناق، ثم أطعموا وتربّوا في ظلّ الاسترقاق، دون نظر إلى أفق أبعد، يقنعون بالعيش مثلما ولدوا. ثم إنه لمّا كان التفكير في حال مختلفة أو في حق آخر لا يطرأ على بالهم، فهم يأخذون وضعهم حال مولدهم مأخذ الأمر الطبيعي. ومع هذا فما من

وارث إلا نظر أحياناً في مستندات أبيه ليرى: هل يتمتَّع بحقوق تَرِكَته كاملة، أم أن غبناً قد أصابه أو أصاب سلفه؟ لكن- لا شك- في أن العادة، مع سيطرتها علينا في كل مجال لا تظهر قوة تأثيرها مثلما تظهر حين تلقِّننا العبودية، وحين تعلِّمنا، مثلما قبل، عن ميثريدات الذي صار السّمّ عنده شراباً مألوفاً[16]، كيف نجرع سمّ الاسترقاق دون الشعور بمرارته. لا جدال في أن للطبيعة نصيباً كبيراً في توجيهناحيث تشاء، وأننا نولد على ما تدَّخره لنا من فطرة حسنة أو سيِّئة، ولكن لامناص من التسليم بأن سلطانها علينا يقلّ عن سلطان العادة لأن الاستعداد الطبيعي مهما حسن يذهب هباء إذا لم نتعهَّده، في حين إن العادة تفرض علينا صَوْغَها أيّاً كان هذا الاستعداد. فالبذور التي تنشرها فينا الطبيعة ضئيلة واهية إلى حَدّ يجعلها لا تحتمل أقلّ غذاء منافر لها، فرعايتها لا تتمّ بمثل السهولة التي تتبدَّد بها وتفنى، شأنها شأن أشجار الفاكهة: كل شجرة منها لها طبيعتها التي تؤتي بمقتضاها ثمارها إذا تركتها، ولكنها تخرج عن طبيعتها وتؤدّي ثماراً غريبة غير ثمارها إذا طعّمتها. كذلك الأعشاب: كل عشب له خاصيته وطبيعته وتفرُّده، ولكن البرد والجو ثم التربة ويد البستاني تعين نموَّه كثيراً، أو تعوقه كثيراً حتى إن النبات الذي نراه في قطر لا نكاد نعرفه في قطر آخر. تخيَّلْ رجلاً رأى أهل مدينة البندقية - وهم قلّة من الناس يعيشون أحراراً، حتى ليأبى أقلهم جاهاً أن يتوَّج ملكاً على جميعهم، ولدوا ونشأوا على ألا يعرف أي منهم مطمعاً إلا الإدلاء بأحسن النصح من أجل الحفاظ على الحرية والسهر عليها، تربّوا منذ المهد، وتشكَّلوا على ألا يمدّوا أيديهم إلى سائر نِعم الأرض مجتمعة عوضاً عن ذرة من حرّيّتهم[17] - أقول: تخيَّلْ رجلاً رأى هؤلاء القوم، ثم ذهب بعد أن غادرهم إلى أرض ينشر عليها سلطانه مَنْ لقَّبناه بـ«مَلِكِ زمانه)[18]، أرض يرى فيها أناساً لا يولدون إلا لخدمته، ولا يعيشون إلا لدوام قوّته، ترى، هل يظن أن هؤلاء وأولئك من عجينة واحدة، أم الأرجح أنه سوف

يعتقد أنه قد ترك مدينة آدمية ودخل حظيرة للدواب؟

يحكى أن ليكورج (مُشَرِّع إسبرطة[19]) قد ربَّى كلبين خرجا من بطن واحد، ورضعا الثدي ذاته، فجعل أحدهما يسمن في المطابخ، وترك الأخر يجري في الحقول وراء أبواق الصيد. فلمّا أراد أن يبيِّن لشعب لاسيدومونيا[20] أن الناس هم ما تصنع بهم تربيتهم جاء بالكلبين وسط السوق، ووضع بينهم حساءً وأرنباً، فإذا أحدهما يجري وراء الطبق، والأخر وراء الأرنب. فقال ليكورج: ومع هذا فهما أخوان ! هكذا نجح بفضل قوانينه ودستوره في أن ينشئ سكان لاسيدومونيا تنشئة، جعلت كلّاً منهم يفضِّل الموت ألف ميتة على أن يختار لنفسه سيِّداً آخر سوى القانون والعقل.

ويطيب لي هنا أن أتذكر حديثاً جرى في قديم الزمان بين أحد المقرَّبين إلى إكسرس ملك فارس الأعظم وبين رجلين من لاسيدومونيا. أخذ إكسرس، وهو يُعِدّ جيشه الضخم لغزو اليونان، يبعث رسله إلى المدن اليونانية يطلبون إليها الماء والتراب: وهو تعبير كان يستخدمه الفرس، إشارة إلى أنهم يأمرون المدن بالاستسلام. إلا أثينا وإسبرطة، فقد تجَنَّب أن يرسل إليهم أحداً. ذلك أن الأثينيين والإسبرطيين كان قد سبق لهم أن أمسكوا بسفراء أبيه داريوس، فزجّوا بعضهم في الحفر والبعض الآخر في الآبار قائلين: خذوا ما تريدون من الماء والتراب ! كانوا قوماً لا يطيقون ولو كلمة تمسّ حرّيَّتهم. غير أن الإسبرطيين بعد أن صنعوا هذا الصنيع، أدركوا أنهم قد جَرّوا على أنفسهم غضب الآلهة وغضب تالثيبيوس، إله الرسل، بنوع خاص، فقرَّروا أن يرسلوا إلى إكسرس مواطنَيْن من بينهم ليَمْثُلا بين يديه، وليصنع بهما ما يشاء انتقاماً لمن قُتِلَ من رُسُل أبيه. فتطوَّع رجلان ليدفعا هذا الثمن، اسم أحدهما سبرثيوس، واسم الآخر بولس. وبينما هما في الطريق صادفا قصراً يملكه رجل فارسي اسمه

هندران، كان الملك قد عَيَّنَه والياً على جميع المدن الواقعة على الساحل، فرحَّبَ بهما أكرم ترحيب، وأطعمهما بغير حساب، ثم سألهما - بعد أن أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث- لِمَ يرفضان إلى هذا الحَدّ صداقة الملك. قال: «انظرا إليَّ أيها الإسبرطيان، واتَّخذا مني مثالاً تعلمان منه كيف يعرف الملك تشريف من استحقّ، وتذكَّرا أنكما لو صرتما من أتباعه، لرأيتما من صنيعه ما رأيت، وأنكما لو دنتما له بالطاعة وعرف أمركما لما خرج كلاكما عن أن يكون أميراً لمدينة من مدن اليونان». فأجابه محدِّثاه: «لهذا -يا هندرمان- أمر لا تملك فيه إسداء النصح إلينا، لأنك جَرَّبت النعمة التي تَعِدنا بها، ولكنك لا تعلم شيئاً عن نعمتنا، لقد ذقت حظوة الملك، وأما الحرّيّة فلست تعرف ما مذاقها ولا مدى عذوبتها، ولو فعلت لنصحتنا بالدفاع عنها لا بالرمح والدرع بل بالأسنان والأظافر». هذا الجواب وحده هو الصدق، ومع هذا فلا شكَّ في أن ثلاثتهم تحدَّثوا وفاقاً لنشأتهم، فما كان للفارسي أن يستشعر الأسف على الحرية وهو لم ينلها قَطّ، ولا للإسبرطي أن يحتمل التبعية بعد أن ذاق الحرّيّة.

وكان كاتو[21] الأوتيكي، وهو طفل تحت الوصاية كثير التردُّد على منزل الدكتاتور سيلّا[22]، يروح ويجيء متى شاء لا يُصَدّ الباب في وجهه أبداً لكرم محتده، ولِما كان بينه وبين سيلّا من أواصر القرابة. وكان معلمه يصحبه في كل زيارة، على ما جرت به العادة إذ ذاك مع أبناء الأسر العريقة. ولم يلبث أن تبيَّنَ له أن مصائر الناس تُحسَم بتلك الدار بمحضر من سيلّا نفسه أو بأمره: البعض يُسجَن، والبعض يُدان، هذا يُنفَى، وهذا يُشنَق، هذا يُطالب بمصادرة أملاك أحد المواطنين،وذاك يطلب رأسه. تبيَّن له -بالاختصار- أن الأمور لا تجري على ما ينبغي لدى مسؤول أعملته المدينة بل لدى طاغية استبدَّ بالشعب، وأن المكان لم يكن ساحة

للعدل بل مصنعاً للطغيان. عندئذ قال الفتى لمعلِّمه: «أنَّى لي بخنجر أدسُّه تحت ردائي، فإني كثيراً ما أرى سيلّا في حجرته قبل أن يستيقظ، وإنَّ بساعديَّ لقوّة تكفي خلاص المدينة منه». هذه حقاً كلمة تليق برجل من معدن كاتو، وهكذا بدأت حياة هذا البطل الذي مات كريماً مثلما عاش كريماً. ومع هذا هَبْ أنك لم تذكر الاسم ولا البلد مكتفياً بذكر الواقعة كما هي: لا شكَّ أن الواقعة سوف تتحدَّث عندئذ عن نفسها بنفسها، لسوف يستدلّ السامع منها أن قائل هذا القول روماني وُلِد في أحضان روما حين كانت روما مدينة حُرّة. لِمَ أقول ذلك؟ طبعاً؛لا لأني أظن أن البلد أو الأرض يضيفان إلى الشيء ما ليس فيه، فالعبودية مرّة في كل قطر وجوّ. والحرية عزيزة، ولكن لأني أرى أن من سَبَق النير مولدهم جديرون بالرثاء، فواجبنا عذرهم أو الصفح لهم إذا كانوا لا يرون ضرّاً في عبوديَّتهم ما داموا لم يروا ولو ظِلَّ الحرية، ولا سمعوا عنها قَطّ. فلو كان ثمة بلد كبلد السِمَرِّيين(23)، فيما يقول هوميروس، بلد لا تشرق عليه الشمس شروقها المألوف علينا، وإنما بعد أن تفيض عليهم بنورها ستة أشهر متوالية تتركهم نياماً في الحلكة خلال النصف الآخر من السنة: مَنْ وُلِدوا في غياهب هذا الليل الطويل، إذا كانوا لم يسمعوا البتة أحداً يتحدّث عن الضوء، هل نعجب لو أنهم ألفوا الظلمات التي وُلِدوا فيها دون أن يستشعروا الرغبة في النور؟ إنا لا نفتقد ما لم نحصل عليه قطّ، وإنما يأتي الأسف في أعقاب المسَرّة. ودوماً تأتي ذكرى الفرح المنقضي مع خبرة الألم. أجل إن طبيعة الإنسان أن يكون حُرّاً، وأن يريد كونه كذلك، ولكن من طبيعته أيضاً أن يتطبَّع بما نشأ عليه.

لنقل -إذاً- إن ما درج الإنسان عليه وتعوَّدَه يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي، فلا شيء ينتسب إلى فطرته سوى ما تدعوه إليه طبيعته الخالصة التي لم يمسّها التغيير. ومنه كانت العادة أول أسباب العبودية المختارة:

كشأن الجياد الشوامس تعضّ الحَكَمة بالنواجذ في البدء، ثم تلهو بها أخيراً، وبعد أن كانت ترجم، ولا تكاد تستقرّ تحت السرج إذا هي الآن تتحلّى برحالها، وتركبها الخيلاء وهي تتبختر في دروزها، تقول إنها كانت منذ البدء ملكاً لمالكها، وإن آباءها عاشت كذلك، وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور، وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الإلزام، ويمرّ الزمن تدعم هي نفسها امتلاك طغاتها إياها. ولكن الحقيقة هي أن السنين لا تجعل أبداً من الغبن حقاً، وإنما تزيد الإساءة استفحالاً[24]. آجلاً أو عاجلاً يظهر أفراد ولدوا على استعداد أحسن يشعرون بوطأة الغلّ، ولا يتمالكون عن هَزَّه هَزّاً، ولا يرضون أنفسهم أبداً على التبعيّة والخضوع، بل هم مثلهم كمثل أوليس وهو يجتاب الأرض والبحر عساه يرى الدخان الذي يصعد من داره، لا يمسكون قَطّ عن التفكير في حقوقهم الطبيعية وعن تذكُّر من تقدَّموهم وتذكُّر وضعهم الأوَّل. أولئك هم الذين إذا ملكوا فهماً نافذاً ورأياً بصرياً، وانصقلت عقولهم لم يكتفوا -كما يفعل العامة- بالنظر إلى مواطئ أقدامهم دون التفات إلى ما أمامهم وما وراءهم، ودون أن يتذكَّروا وقائع الماضي ليسترشدوا بها في الحكم على المستقبل وسبر الحاضر. أولئك هم الذين استقامت أذهانهم بطبيعتها فزادوها بالدراسة والمعرفة تهذيباً. أولئك لو أن الحرّيّة امّحَت من وجه الأرض، وتركتها كلها لتخيَّلوها، وأحسّوا بها في عقولهم، وتذوَّقوها ذوقاً، ولم يجدوا للعبودية طمعاً مهما تبرقعت.

لقد أدرك قراقوش الترك[25] هذا الأمرَ أحسن إدراك: أدرك أن الكتب والثقافة الصحيحة تزوِّدان الناس أكثر من أي شيء آخر بالحسّ والفهم اللذين يتيحان لهم التعارف، والاجتماع على كراهية الطغيان، دليل ذلك خلوّ أرضه من العلماء، وبعده عن طلبهم. وفي سائر الأرض -بوجه عام- تظلّ حماسة من أخلصوا قلوبهم للحرّيّة، وتظلّ محبَّتهم دون أن يكون لهم

أثر مهما كثر عددهم لانقطاع التواصل بينهم: فالطاغية يسلبهم كل حرّيّة: حرّيّة العمل وحرية الكلام -ولو أمكن- فحرّيّة الفكر، فإذا هم منفردون منعزلون كلٌّ في تخيُّله. وعليه فما بالَغَ الإله الساخر موموس[26] في سخريَّته، إذ شهد الإنسان الذي صنعه فولكان[27] فنصحه أن يضع أيضاً بقلب صنيعه نافذةً صغيرة لكي تتسنّى رؤية أفكاره من خلالها. ولقد قيل إن بروتوس وكاسيوس[28] حين شرعا في تحرير روما، أو بالأصدق تحرير العالم أجمع، أَبَيا أن يشركا شيشرون. وهو المدافع المنقطع عن المصلحة العامة، فيما عقدا العزم عليه؛ إذ كان من رأيهما أن قلبه أضعف من أن يثبت في هذا الموقف العصيب. كانا يثقان في صدق إرادته من غير أن يضمنا شجاعته. وإن لفي وسع من أراد استقراء وقائع الماضي وسجلّات التاريخ، أن يتحقَّق أن من رأوا بلدهم تُساء سياسته وتستحوذ عليه أيادٍ جانية فعقدوا العزم على تحريره بنِيّة صادقة، مستقيمة، لا تردُّدَ فيها قلَّ ألاَّ يحالفهم النجاح، وأن الحرية تساندهم في الدفاع عن قضيَّتها. انظر إلى هارموديوس، وأرسطجيتون، وثراسيبول، وبروتوس الأقدم، وفالريوس، وديون[29]: لقد كان عملهم ناجحاً مثلما كان فكرهم فاضلاً، لأن الحظ لا يكاد يتخلّى أبداً في مثل هذه القضية عن مناصرة الإرادة الطيبة. كذلك نجح بروتوس الأصغر وكاسيوس في رفع العبودية، وإن كانا إذ استرجعا الجمهورية قد خسرا الحياة خسارة لا تحط من شأنهما (فأيّة سُبّة هذه أن تنسب الحِطّة إلى أمثال هؤلاء القوم سواء في الحياة أو في الممات!) بل خسارة عانت منها الجمهورية أكبر الضرر، وعانت البؤس أبد الدهر، واندثرت اندثاراً كأنها قد دفنت بدفنهما. فأما ما تلا ذلك من الحركات الموجَّهة ضدّ الأباطرة الرومانيين، فلم تكن إلا مؤامرات حاكها قوم طامحون لا يستحقّون الرثاء على سوء مآلهم، فقد كان من الواضح أن مطلبهم لم يكن تقويض العرش بل زحزحة التاج، مُدَّعين طرد الطاغية مع الإبقاء على الطغيان. هؤلاء قوم ما كنت نفسي أودّ لهم نجاحاً، وإنه

ليسرّني أنهم قد ضربوا بأنفسهم المثل على أن اسم الحرية المقدَّس لا يجوز استخدامه مع اعوجاج القصد.

ولكني كي أعود إلى موضوعنا الذي كاد يغيب عن نظري أقول إن السبب الأول الذي يجعل الناس ينصاعون طواعية للاستعباد، هو كونهم يولدون رقيقاً وينشأون كذلك. إلى هذا السبب يُضاف سبب آخر: إن الناس يسهل تحوُّلهم تحت وطأة الطغيان إلى جبناء مخنَّثين. ولكم أشكر أبا الطب هيبوقراط إذ فطن إلى ذلك، وعَبَّرَ عنه أحسن تعبير في كتابه المُعَلَّى عن الأمراض. لقد كان هذا الرجل يملك يقيناً في جميع أحواله قلباً يزخر بالمروءة، أبدى ذلك حين أراد ملك الفرس جذبه بالعطايا والهدايا فأجابه أنه لن يسلم من وخزات الضمير لو أنه أشتغل بعلاج الأجانب الذين يريدون موت الإغريق، وراح يخدمهم بفنِّه بينما هو يريد إخضاع بلادهم. ولا يزال خطابه المرسَل إلى ملك الفرس ماثلاً إلى يومنا هذا بين سائر كتاباته، يشهد مدى الدهر على قلبه الطيّب وطبيعته النبيلة. من المحقَّق إذاً أن الحرّيّة تزول بزوالها الشهامة. فالقوم التابعون لا هِمّة لهم في القتال ولا جَلَد، إنهم يذهبون إلى الخطر كأنهم يُشَدّون إليه شدّاً، أشبه بنيام يؤدّون واجباً فُرِض عليهم، لا يشعرون بلهب الحرّيّة يحترق في قلوبهم، هذا اللهب الذي يجعل المرء يزدري المخاطر، ويودّ لو اكتسب بروعةِ موتهِ الشرفَ والمجدَ بين أقرانه. إن الأحرار يتنافسون كلٌّ من أجل الجماعة ومن أجل نفسه، وينتظرون جميعاً نصيبهم المشترك من ألم الانكسار أو فرحة الانتصار، أما المُستعْبَدون فهم- عدا هذه الشجاعة في القتال- يفقدون أيضاً الهمّة في كل موقف، وتسقط قلوبهم وتخور وتقصر عن عظيم الأعمال. وهذا أمر يعلمه الطغاة جيداً، فهم ما إن يروا الناس في هذا المنعطف حتى يعاونونهم على المضيّ فيه كي يزيدوا استنعاجاً.

لقد وضع كْسينُوفون [30]، وهو مؤرِّخ جادّ من أئمة المؤرِّخين اليونانيين، كتاباً تخيَّلَ فيه حواراً بين سيمونيد وطاغية سيراقوصة هيرون حول كروب الطاغية. هذا الكتاب مليء بنظرات نقدية طيِّبة جادّة، وإن اتَّسمت مع ذلك- في رأيي- بأقصى ما يمكن من اللطف. ليت طغاة الأرض وضعوا هذا الكتاب نصب أعينهم أنّى وُجِدوا لتكون لهم منه مرآة لهم! فلو فعلوا لتبيَّنوا رذائلهم، ولَأخجَلَتْهم مساعيهم. في هذا الحوار يصف كسينوفون كرب الطغاة. إذ يضطرّهم الأذى الذي يلحقونه بالناس جميعاً إلى خشيتهم جميعاً، قائلاً بين ما يقول إن الملوك الفاسدين يستخدمون المرتزقة الأجانب في شنّ الحروب فَرَقاً من ترك السلاح في أيدي رعاياهم، الذين أمعنوا في غبنهم. (هذا وإن يكن من الصحيح أن التاريخ قد شهد بين الفرنسيين أنفسهم، وفي الماضي أكثر منه في الحاضر، ملوكاً صالحين جَنَّدوا جيوشاً من الأمم الأجنبية لا عن حذر، بل حرصاً على بني وطنهم، وتقديراً منهم أن خسارة المال يبخس ثمنها في سبيل صيانة الأرواح عملاً بما يسند إلى سيبيون، (وأظنه الإفريقي)[31]، من قوله أنه «يفضِّل لو أنقذ مواطناً على أن يدحر ألف عدو». ولكن الشيء المحقَّق هو أنه ما من طاغية يظن أبداً أن السلطان قد استتبَّ له إلا أن يبلغ تلك الغاية التي هي تصفية المأمورين بأمره من كل رجل ذي قيمة ما. بحيث يحقّ لنا أن نوجِّه إليه التقريع الذي يفخر تيراسون في إحدى مسرحيات تيرانس بتوجيهه إلى مروِّض الأفيال:

ألأنك تأمر الأنعام، تجرؤ هذه الجرأة[32]؟

بيد أن هذا التحايل من قِبَل الطغاة على التغرير برعاياهم لا يمكن أن يتجلّى على نحو يفوق تجلّيه فيما صنع كسرى إزاء الليديين[33]، إذ دحرهم بثرائه، واستولى على عاصمتهم سارد، وأسر كريسوس ملكهم الذي ضربت بثرائه الأمثال، وعاد به إلى بلاده فبلغه أن أهل سارد قد ثاروا. وكان يسعه

سحقهم إلا أنه رغب عن تدمير مدينة فاق جمالها الأوصاف، ثم هو لم يكن يريد أن يجمِّد بها جيشاً لحراستها. فتفتَّقَ ذهنه عن حيلة كبيرة توصَّل بها إلى مأربه: فتح دور الدعارة والخمر والألعاب الجماهيرية، ونشر أمراً يحضّ السكان على الإقبال على هذا كله. فكانت له من هذه الحيلة حامية أغنته إلى الأبد عن أن يسلّ السيف في وجه الليديين، فقد انصرف هؤلاء المساكين البؤساء إلى التفنُّن في اختراع الألعاب من كل لون وصنف، حتى إن اللاتينيين اشتقّوا من اسمهم الكلمة التي يدلّون بها على اللهو فقالوا (لودي)، وكأنهم يريدون أن يقولوا (ليدي). صحيح أن الطغاة لم يعلنوا جميعاً عما يسعون إليه من تخنيث الشعوب. ولكن ما فعله هذا صراحة يتوخّاه معظم الآخرين خفية. والحقيقة هي أن تلك طبيعة العامة الذين تضم المدن القسط الأوفر منهم، فهم شكّاك فيمن أحبَّهم، سُذّج حيال من خدعهم. فلا تظننّ أن ثمة عصفوراً يسهل اقتناصه بالصفافير[34]، أو سمكة تهرع إلى الطعم بمثل العجلة التي تسرع بها إلى العبودية كلُّ الشعوب منجذبة، كما نقول، بأقل زَغَبة تقرب فاها. وإنه لأمر عجيب أن نراها تندفع هذا الاندفاع، يكفي فيه مُجَرَّد زعزعتها. المسارح والألعاب والمساخر والمشاهد والمصارعون والوحوش الغريبة والميداليات واللوحات، هذه وغيرها من المخدِّرات كانت لدى الشعوب القديمة طُعْمُ عبوديتها، وثمن حرّيَّتها، وأدوات الاستبداد بها. هذه الوسيلة وهذا المنهج وهذه المغريات هي ما تذرَّع به الطغاة القدامى حتى تنام رعيَّتهم تحت النير. هكذا تُؤخَذ الشعوب المخدوعة إذ تروق لها هذه الملاهي، وتتسلّى بلذّة باطلة تخطف أبصارها في تعوُّد العبودية بسذاجة تشبه سذاجة الأطفال، الذين تخلب لُبَّهم الكتب المصوَّرة فيحاولون فكّ حروفها، ولكن بتخبُّط أكبر. واكتشف الطغاة الرومانيون اكتشافاً آخر فوق هذا كلّه: موائد العشرات[35] يكثرون من الدعوة إليها في الأعياد تمويهاً على هؤلاء الرعاع الذين لا ينقادون لشيء مثلما ينقادون للذَّة

الفم، والذين ما كان يستطيع أشدّهم مكراً، وأقربهم إلى أسماعهم، أن يترك وعاء حسائه ليسترجع حرّيّة جمهورية أفلاطون. كان الطغاة يجودون برطل من القمح، ونصف ليتر من النبيذ، وبدرهم، وكان أمراً يدعو إلى الحسرة أن يُعْلوا عندئذ الهتاف: عاش الملك! فما كان يخطر على بال هؤلاء الأغبياء أنهم إنما كانوا يستردّون جزءاً مما لهم، وحتى هذا الجزء ما كان الطاغية ليجود به عليهم لولا سَبْقه إلى سلبهم إياه. من يلتقط اليوم الدرهم ويأكل حتى التخمة مسبِّحاً بحمد تيبريوس، ونيرون، وبسخاء عطائهما لا ينبس بحرف يزيد عَمّا ينبس به الحجر، ولا تصدر عنه خلجة تزيد عما يصدر عن الجذع المقطوع، حين يرغم غداً على أن يترك أملاكه لجشع هؤلاء الأباطرة المفخمين، وأطفاله لشهواتهم، لا بل دمهم نفسه لقسوتهم. ذلك كان شأن الشعب الجاهل دائماً: مفتوح الذراعين، مستسلم لِلّذة التي كانت الأمانة تقضي بالإمساك عنها، فاقد الإحساس بالغبن والألم اللذين كانت الأمانة تستدعي الشعور بهما. إني لا أرى اليوم أحداً يسمع حديثاً عن نيرون إلا ارتعد لمجرَّد ذكر اسم هذا المسخ الكريه، هذا الوباء الشنيع القذر الذي لوَّثَ العالم أجمع، ومع هذا فلا سبيل إلى إنكار أن هذا السفّاح، هذا الجلّاد، هذا الوحش الضاري حين مات ميتة لا تقلّ خزياً عن حياته(36) قد أثار بموته هذا حزن الشعب الروماني النبيل الذي راح يتذكَّر ألعابه وولائمه حتى أوشك على الحداد (هذا ما كتبه كورنيليوس تاسيت، وهو مؤلِّف جاد محقِّق في طليعة من يوثق بهم(37).).

ولا أظننا سنعجب لذلك كثيراً إذا تذكَّرنا ما صنعه هذا الشعب من قبل حين مات يوليوس قيصر الذي استهان بالقوانين والحرّيّة معاً، والذي لا أرى في شخصه مزية ما لأن إنسانيته التي كثر الحديث عنها في كل معرض ومقام كانت أبلغ ضرراً من قسوة الوحوش الضارية، فالحقيقة هي

أن هذه الحلاوة المسمومة هي التي سكرَت طعم العبودية لدى الشعب الروماني، ولكنه ما إن مات حتى شرع هذا الشعب -ولَمّاَ تزل ولائمه في فمه وعطاياه بذاكرته- في تكريمه وتكديس المقاعد المنتثرة في الميدان العام ليوقد منها النار التي تحوِّله تراباً، ثم بنى له نصباً تذكارية ملقِّباً إياه بأبي الشعب(هذا ما جاء بعالية النصب)، وأبدى له من مظاهر التشريف ميتاً ما لم يكن ينبغي إبداؤه لِحَيّ إلا إذا أردنا أن نستثني قاتليه[38]، ثم لقب وكيل الشعب[39]. هذا أيضاً لم ينسَ الأباطرة الرومان التلقُّب به الواحد بعد الآخر، لِما كان لهذه الوظيفة من الحرمة والقداسة، ثم لأن القانون اقتضاها للدفاع عن الشعب وحمايته في ظل الدولة. بذا أرادوا اكتساب ثقة الشعب كأنما كان هَمّ هذا الأخير هو سماع الاسم لا الشعور بنتائجه. وما يُحسن عنهم صنعاً طغاة اليوم، الذين لا يرتبكون شرّاً مهما عَظُمَ دون أن يُسبقوه بكلام منمَّق عن خير الجماعة وعن الأمن العام: «لأنك تعلم حقّ العلم، يا لونجا»[40]، ثبت الصيغ المحفوظة التي يريدون بها تغذية فصاحتهم، وإن جانبت الفصاحة غالبيتهم لنفورها من وقاحتهم. كان ملوك آشور، ومن بعدهم ملوك ميديا، لا يظهرون علانية إلا بعد وقت متأخِّر بقدر المستطاع، ليتركوا الجمهور في شكّ: أَهُم بشر أم شيء يزيد! وليُسلّموا لهذه الأحلام أناساً لا ينشط خيالهم إلا حيث يعجزون عن الحكم على الأشياء عياناً. هكذا عاشت في ظل الإمبراطورية الآشورية شعوب متعدِّدة ألفت خدمة هذا السيد الغامض، وخدمته طائعة بمقدار جهلها أيّ سيِّد يسودها، لا بل هي كانت تكاد لا تعلم إن كان لمثل هذا السيد وجود، فخشيت جميعها بعين الاعتقاد واحداً لم يره أحد قطّ. كذلك ملوك مصر الأوائل كانوا لا يظهرون علانية إلا وقد حملوا على رؤوسهم حيناً قطاً، وحيناً فرعاً، وحيناً ناراً، تقنَّعوا بها وتبرَّجوا كالمشعوذين، وبذا أثاروا، بغرابة المنظر، المهابة والإعجاب في نفوس رعاياهم، وكان أجدر بالناس ـ لولا فرط حمقهم وعبوديتهم- ألا يروا في

هذا كله ـ على ما أعتقد ـ إلا مدعاة لِلَّهو والضحك[41]. إنه لأمر يدعو إلى الرثاء أن نسمع بأي الوسائل تذرَّعَ الطغاة حتى يؤسِّسوا طغيانهم، وإلى أيِّ الحيل التجأوا دون أن تتخلَّف الكثرة الجاهلة في كل زمان عن ملاقاتهم، فلا يرمون شبكة إليها إلا ارتموا فيها، وخلا تغريرهم بها من المشقّة حتى إنهم إنما ينجحون في خداعها أكبر النجاح حين يسخرون منها أكبر السخرية.

ثم ماذا أقول عن محرقة أخرى تلقَّفَتها الشعوب القديمة كأنها نقد لا زيف فيه؟ لقد دخل في اعتقادها أن إبهام بيرَّوس[42]، ملك الإيبيريّين، كان يصنع المعجزات،ويشفي أمراض الطحال، ثم جمّلوا القصة، فأضافوا أن هذا الإصبع قد ظهر سليماً وسط الرماد، لم تصبه النار بأذى بعد أن احترق الجسد كله. هكذا يصنع الشعب نفسه الأكاذيب كيما يعود ليصدِّقها. هذه الحكايات قد سجَّلها كثير من الناس، ولكن على نمط لا يترك مجالاً للشكّ في أنهم لم يعدوا نقلها عما تردَّد في جلبة المدن، وعلى أفواه العامة. منها أن فاسياسيان[43] رجع من آشور فَمَرَّ بالإسكندرية متوجِّهاً إلى روما، فصنع في طريقه المعجزات: قوّم العُرج، وَرَدَّ البصر إلى العُمْي، وأتى عجائب أخرى من هذا القبيل، لا يغفل ـ في رأيي ـ عن زيفها إلا من أصابه عمى يغلب عمى الذين يُنسَب إلى فاسياسيان شفاؤهم. إن الطغاة أنفسهم يعجبون لقدرة الناس على احتمال ما يصيبه على رؤوسهم من الإساءة إنسان مثلهم، لهذا احتموا بالدين، واستتروا وراءه، ولو استطاعوا لاستعاروا نبذة من الألوهية سنداً لحياتهم الباطلة. إليك بسالونيوس[44] الذي تروي العَرَّافة، في ملحمة فرجل، أنه يرقد الآن في قاع الجحيم عقاباً على هزئه بالناس إلى حَدّ جعله يريد تقمُّص جوبيتر أمامهم:

لحقه شديد العذاب إذ ابتغى

محاكاة جوبيتر: رعده وصواعقه

فشَدَّ أربعة جياد صواهل إلى عربته الفانية،

ثم علاها ممسكاً بشعلة من النار الساطعة

و جرى في سوق إليدا ناثراً الرعب بين سكانها

المجنون ادّعى ملك السماء، وادّعى بالصاج

محاكاة الرعد الذي يأبى دويّه المحاكاة !

و لكن جوبيتر رماه بالصاعقة الحقّة

فقلب عربته في زوبعة من النار

غطَّتها هي وجيادها وربّها وصاعقته.

كان النصر قصيراً، ولكن العذاب مقيم.

فإذا كان هذا المأفون لا يزال يلقى هذا العقاب في الدار الأخرى، بينا هو لا يعدو أن رَكِبَتْه نزوة من الحمق، فيقيني أن من تذرَّعوا بالدين تحقيقاً لشرورهم ينتظرهم كيل أعظم.

أما طغاتنا نحن فقد نثروا في فرنسا رموزاً لا أدري كنهها كالضفادع، والزنابق، والقارورة المقدَّسة، والشعلة الذهبية[45]، وكلها أشياء لا أريد -أيّاً كانت ماهيّاتها- أن أثير التشكُّك فيها ما دمنا وأجدادنا، لم نرَ مدعاة للارتداد عن تصديقها؛ إذ وُهِبنا على الدوام ملوكاً طيبين في السلم، شجعان في الحرب، حتى ليخال المرء أنهم، وإن وُلِدوا ملوكاً، لم تسوِّهم الطبيعة على غرار الآخرين، وإنما اختارهم الله القدير قبل أن يولدوا

لحكم هذه المملكة والحفاظ عليها[46]. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك لما أردت الخوض في الحديث عن صحة قصصنا، ولا نقدها نقداً دقيقاً، حتى لا أفسد جمالاً قد يتبارى فيه شعراؤنا أمثال رونسار، وبابيف ،وبلاي[47]، الذين لا أقول أنهم حَسَّنوا شعرنا، بل خلقوه خلقاً جديداً، وبذا تقدَّموا بلغتنا تقدُّماً يجعلني أجرؤ على الأمل في ألا تعود بعد ذلك لليونانية واللاتينية مزية عليها سوى حقّ الأقدم. فلا شَكَّ في أني سوف أسيء الآن إلى نَظْمنا(ولا أنكر أني استخدم هذه الكلمة طواعية، لأنه إذا كان من الحق أن البعض قد جعل من النظم صنعة آلية، فمن الحق أيضاً أن هناك عدداً كافياً من القادرين على استرجاع نبله ومقامه الأول)، أقول إني أسيء الآن إلى نَظْمنا لو أني جَرَّدته من حكايات الملك كلوفيس الجميلة، بعد أن رأيت بأية رشاقة وسهولة يسبح فيها وحي رونسار في فرنسويّاته. إني أحسّ أثر الرجل في المستقبل، إني أعرف توقُّد فكره وأعلم لطفه: لسوف يوفّي الشعلة الذهبية حقّها مثلما صنع الرومان بدروعهم: دروع السماء الملقاة على أرضنا[48]- كما يقول فرجيل- لسوف يرفق بقارورتنا رفق الأثينيين بسلّة إريكتون[49]، ولسوف يجعل الناس تشيد بشعاراتنا مثلما شاد الأثينيون بغصن الزيتون، الذي لا زالوا يحفظونه في برج مينرفا. لهذا كنت أتجاوز الحدّ -يقيناً - لو أني أردت تكذيب كتبنا، وجريت في مراتع شعرائنا. ولكني -لكي أعود إلى موضوعي الذي لا أدري كيف أفلتَ مني خيطه- ألحظ أن الطغاة كانوا يسعون دائماً، كيما يستتبّ سلطانهم، إلى تعويد الناس على أن يدينوا لهم لا بالطاعة والعبودية فحسب، بل بالإخلاص كذلك[50].

فكل ما ذكرته حتى الآن عن الوسائل التي يصطنعها الطغاة ليعلِّموا الناس كيف يخدمونهم طواعية إنما ينطبق على الكثرة الساذجة من الشعب.

إني أقترب الآن من نقطة هي التي يكمن فيها- على ما أعتقد- زنبلك

السيادة وسرّها، ويكمن أساس الطغيان وعماده. إن من يظن أن الرمّاحة والحرس وأبراج المراقبة تحمي الطغاة يخطئ، في رأيي، خطأً كبيراً؛ ففي يقيني أنهم إنما يعمدون إليها مظهراً وإثارة للفزع لا ارتكازاً إليها. فالقوّاسة تصدّ من لا حول لهم ولا قوة على اقتحام القصر، ولكنها لا تصدّ المسلَّحين القادرين على بعض العزم. ثم إن من السهل أن نتحقَّق أن أباطرة الرومان الذين حماهم قوَّاسوهم يقلّون عدداً عَمَّن قتلهم حراسهم. فلا جموع الخيالة ولا فرق المشاة ولا قوة الأسلحة تحمي الطغاة. الأمر يصعب على التصديق للوهلة الأولى، ولكنه الحق عينه: هم دوماً أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه، أربعة أو خمسة يشدّون له البلد كله إلى مقود العبودية. في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه، أربعة أو خمسة يشدّون له البلد كله إلى مقود العبودية، في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة تصيخ إليهم أذن الطاغية، يتقرَّبون منه، أو يقرِّبهم إليه ليكونوا شركاء جرائمه، وخلّان ملذاته، وقوّاد شهواته، ومقاسميه فيما نَهَبَ. هؤلاء الستة يدرِّبون رئيسهم على القسوة نحو المجتمع، لا بشروره وحدها، بل بشروره وشرورهم. هؤلاء الستة ينتفع في كنفهم ستمئة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية، ثم هؤلاء الستمئة يذيلهم ستة آلاف تابع، يوكلون إليهم مناصب الدولة ويهبونهم إمَّا حكم الأقاليم، وإمّا التصرف في الأموال، ليشرفوا على بخلهم وقساوتهم، وليطيحوا بهم متى شاؤوا، تاركين إياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاءً إلا في ظلهم، ولا بعداً عن طائلة القوانين وعقوباتها إلا عن طريقهم. ما أطول سلسلة الأتباع بعد ذلك !

إن من أراد التسلّي بأن يتقصّى هذه الشبكة وَسِعَهُ أن يرى لا ستة آلاف، ولا مئة ألف، بل أن يرى الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل، مثل جوبيتر إذ يجعله هوميروس يتفاخر بأنه لو شَدّ سلسلته لَجَذَب إليه الآلهة

جميعاً. من هنا جاء تضخُّم مجلس الشيوخ في عهد يوليوس[51]، وجاء خلق المناصب الجديدة، وفتح باب التعيينات والترقيات على مصراعيه، كل هذا -يقيناً- لا من أجل إصلاح العدالة، بل أولاً وأخيراً من أجل أن تزيد سواعد الطاغية. خلاصة القول- إذاً- هي أن الطغاة تُجنى من ورائهم حظوات، وتُجنَى مغانم ومكاسب، فإذا من ربحوا من الطغيان، أو هكذا هُيِّئَ إليهم، يعدلون في النهاية من يؤثرون الحرية. فكما يقول الأطباء إن جسدنا لا يفسد جزء منه إلا إن انجذبت أمزجته إلى هذا الجزء الفاسد، دون غيره، كذلك ما إن يعلن ملك عن استبداده بالحكم حتى تلتفّ حوله كل أسقاط المملكة وحثالتها، وما أعني بذلك حشد صغار اللصوص والموصومين الذين لا يملكون لبلد نفعاً، ولا ضرّاً، بل أولئك الذين يدفعهم طموح حارق وبخل شديد[52]، يلتفون حوله ويعضدونه لينالوا نصيبهم من الغنيمة، وليصيروا هم أنفسهم طغاة مصغَّرين في ظل الطاغية الكبير. هكذا الشأن بين كبار اللصوص ومشاهير القراصنة: فريق يستكشف البلد، وفريق يلاحق المسافرين، فريق يقف على مَرْقَبة، وفريق يختبئ، فريق يقتل، وفريق يسلب. ولكنهم- وإن تعدَّدت المراتب بينهم، وكانوا بعضاً توابع، وبعضاً رؤساء- إلا أنه ما من أحد منهم إلا خرج بكسب ما، إن لم يكن بالغنيمة كلها، فيما انتشل. ألا يحكى أن القراصنة الصقليين[53] لم تبلغ فقط كثرة عددهم حدّاً لم يجعل بُدّاً من إرسال بومبي أعظم قواد العصر لمهاجمتهم، بل هم فوق ذلك قد جرّوا إلى التحالف معهم عدداً كبيراً من المدن الجميلة والثغور العظيمة التي كانوا يلوذون بها بعد غزواتهم لقاء بعض الربح مكافأة على إخفاء أسلابهم؟

هكذا يستعبد الطاغية رعاياه بعضهم ببعض، يحرسه من كان أولى بهم الاحتراس منه لو كانوا يساوون شيئاً، وهكذا يصدق المثل: لا يفلّ الخشب إلا مسمار من الخشب ذاته. هاهو ذا يحيط به قَوّاسته وحرّاسه

وحاملو حرباته، لا لأنهم لا يقاسون الأذى منه أحياناً، بل لأن هؤلاء الضالين الذين تخلّى اللّه عنهم، وتخلَّت الناس، يستمرئون احتمال الأذى حتى يردّوه لا إلى من أنزله بهم، بل إلى من قاسوه مثلهم دون أن يملكوا إلا الصبر. غير أني إذ أنظر إلى هؤلاء الضالّين الذين يجرون وراء كُرَات الطاغية، حتى يحقّقوا مآربهم من وراء طغيانه، ومن وراء عبودية الشعب على حَدّ سواء يتملَّكني أحياناً كثيرة العجب لرداءتهم، وأرثي أحياناً لحماقتهم: فهل يعني القرب من الطاغية، في الحقيقة، شيئاً آخر سوى البعد عن الحرّيّة واحتضانها بالذراعين، إذا جاز التعبير؟

ليتركوا- ولو حيناً- مطامعهم، وليتجرّدوا- ولو قليلاً- من بخلهم، ولينظروا بعدئذ إلى أنفسهم، وليقبلوا على معرفتها: لسوف يرون عندئذ أن أهل القرى والفلاحين الذين يحلو لهم دوسهم بالأقدام طالما استطاعوا، وتحلو لهم معاملتهم معاملةً أشَرّ من معاملة السَّخَرَة والعبيد، سوف يرون أن هؤلاء المستضعفين هم- مع ذلك- أسعد حظاً وأوفر حرّيّة بالقياس إليهم. فالأجير والحِرَفي، وإن استُعبدا، يفرغان مما ضُرب عليهما بأداء ما يُطلَب إليهما. ولكن الطاغية يرى الآخرين يتزلّفون إليه، ويستجدون حظوته، فعليهم لا العمل بما يقول وحسب، بل عليهم أيضاً التفكير فيما يريد، وغالباً ما يحقّ عليهم أن يحدسوا ما يدور بِخَلَده حتى يروِّضه. فطاعتهم له ليست كل شيء، بل تجب أيضاً ممالأته والانقطاع له، ويجب أن يعذِّبوا أنفسهم، وأن يَنفقوا في العمل تحقيقاً لمراميه. ثم لَمّا كانت نفوسهم لا تلذّ لهم إلا إذا لَذَّت له، فليتركوا أذواقهم لذوقه، وليتكلَّفوا ما ليس منهم، وليتجرَّدوا من سليقتهم، عليهم الانتباه لكلماته وصوبه، ولِما يبدر منه من العلامات، ولنظراته، لينزلوا عن أعينهم وعن أرجلهم وأيديهم، وليكون وجودهم كله رصداً من أجل تحسُّس رغباته وتبيُّن أفكاره. أهذه حياة سعيدة؟ أتُسَمّى هذه حياة؟ هل في الدنيا

شيء أقسى احتمالاً، لا أقول على رجل ذي قلب، ولا على إنسان حسن المولد، وإنما على كائن حظي بقسط من الفهم العام، أو له وجه إنسان لا أكثر؟ أي وضع أشدّ تعساً من حياة على هذا النحو لا يملك فيها المرء شيئاً لنفسه، مستمدّاً من غيره راحتَهُ وحرّيَّته وجسدهُ وحياته؟

لكنهم يريدون العبودية ليجنوا من ورائها الأملاك: كما لو كان في مستطاعهم أن يغنموا شيئاً، بينا هم لا يستطيعون أن يقولوا أنهم يملكون أنفسهم. يودّون لو حازوا الأشياء كأن للحيازة مُتَّسعاً في ظل الطاغية، ويتناسون أنهم هم الذين أعطوه القوة على أن يسلب الجميع كل شيء، دون أن يترك لأحد شيئاً يمكن القول إنه له. إنهم يرون أنه ما من شيء يعرِّض الناس لقسوته مثل الخير، وأنه لا جريمة نحوه تستحقّ الموت في نظره كحيازة ما يستقلّ به المرء عنه. إنهم يرون أنه لا يحبّ إلا الثروات، ولا يكسر إلا الأثرياء. وهم مع هذا يسعون إليه سعيهم إلى الجزّار كي يمثلوا بين يديه ملأى مكتنزين، ولكي يستثيروا جشعه. هؤلاء المقرّبون قد كان أولى بهم ألا يتذكَّروا من غنموا من الطغاة كثيراً، بل أولئك الذين بعد أن كَدَّسوا المغانم بعض الوقت خسروا المغانم والحياة جميعاً، كان أولى بهم أن يَتَّعِظوا لا بالكثرة التي أَثْرَتْ، بل بالقلّة التي استطاعت الاحتفاظ بما كسبت. لنستعرض كل القصص القديمة، ولنستعد تلك التي تعيها ذاكرتنا: لسوف نرى ملء عيوننا إلى أي مدى كَثُرَ عدد الذين اجتذبوا آذان الطاغية بطرق بخسة، محرِّكين سوء جِبلَّتهم، أو مستغلّين غفلتهم، ثم إذا هم بعد ذلك يُسحَقون في النهاية سحقاً بأيدي الأمراء أنفسهم، لا يعدل مقدار السهولة التي علّوهم بها إلا مقدار ما خبروه من انقلاب إلى ضربهم. هذا العدد الغفير من الناس، الذين عاشوا في حمّى هذه الكثرة من الملوك الأرذال، لم يسلم منهم يقيناً إلا القليل، إن لم نقل لم يسلم منهم أحد، من قسوة الطاغية التي بدأوا بتأليبها ضدّ

الآخرين:ففي معظم الأحيان يثرى الغير بما يسلبون بعد أن أثروا هم بما سلبوا في ظل ما تمتَّعوا به من الحظوة.

أما القوم الأفاضل، لو وجد بينهم رجل واحد يحبّه الطاغية، فهم مهما لقوا من قبوله، ومهما سطعت فيهم الفضيلة والنزاهة اللتان لا يقربهما أحد، ولو كان أردأ الناس صنفاً، وأثارتا فيه بعضاً من الاحترام، هؤلاء القوم لا دوام لهم في كنف الطاغية: فهم يؤولون إلى ما آل إليه الجميع، ولا يجدون مفرّاً من أن يعرفوا بخبرة مرة ما هو الطغيان. خذ مثلاً هؤلاء الأفاضل: سينيكا، وبورّوس، وترازياس[54]. الأولان منهم كان من نكد طالعهما أن عرفا الطاغية فترك لهما إدارة أشغاله، وأكَنّ لهما التقدير والإعزاز، خاصة وأن أوّلهما كان قد تعهَّده في طفولته، وكان له في ذلك ضمان لصداقته، ولكن ثلاثتهم يشهد موتهم الأليم شهادة كافية بأن حظوة السيد الرديء ليست أقل من ضمانها. وفي الحق: أي ضمان يُرتَجى من رجل قسا قلبه حتى شمل كرهُه مملكتَه المذعنة لأمره، ونضبت فيه معرفة الحب، فلم يعد يعرف إلا كيف يعدم نفسه، ويدمِّر إمبراطوريته؟

فلو قلنا إن هؤلاء الثلاثة إنما تردّوا في هذه العواقب لحسن خلقهم، كفى أن نسدِّد النظر حول نيرون نفسه لنرى أن الذين لقوا حظوته واستقروا فيها بأرذل الوسائل لم يدم عهدهم زمناً أطول. من الذي سمع عن حب استسلم له صاحبه بلا حَدّ، عن إعزاز بلا قيد؟ من الذي قرأ في أي زمن من الأزمنة عن رجل ولع بامرأة ولعاً عنيداً ملازماً كَوَلَع نيرون هذا ببوبيا[55]، ثم بعدئذ دَسَّ لها السم؟ ألم تقتل أمه أجريبينا[56] زوجها كلوديوس حتى تفسح له الهيمنة على الإمبراطورية؟ ألم تبذل ما وسعت؟ ألم تُقبل طواعية على كل إثم إعلاء له؟ ومع هذا ما لبث ابنها هذا، رضيعها، إمبراطورها الذي صنعته بيدها، ما لبث - بعد أن جحدها مراراً- أن انتزع حياتها في النهاية، وإنه لعقاب ما كان أحد ينكر أنه جزاؤها المستحقّ لو

أن يداً أخرى أنزلته بها غير يد مَنْ مَكّنته. أيّ رجل كان أسهل انقياداً، وأكثر سذاجة أو، بالأصح، أكثر بَلَهاً من الإمبراطور كلوديوس؟ أيّ رجل ركبته امرأة مثلما ركبته مسالينا(57)؟ ومع هذا أسلمها أخيراً ليد الجلّاد! إن الغباوة تلازم الطغاة دائماً، حتى حين يريدون إسداء الحسن إذا أرادوا إسداءه، ولكنهم حين يريدون البطش بالمقرَّبين إليهم يستيقظ فيهم -لا أدري كيف!- القليل من فصاحتهم. ألا تعلم هذه النادرة التي فاه بها هذا الذي رأى صدر المرأة التي شغف بها أيّما شغف، حتى بدا كأنه لا يستطيع الحياة دونها، رآه عارياً فداعبها بهذه المزحة: «هذا العنق الجميل قد يُقطَف قريباً لو أردت»؟ لهذا كان معظم الطغاة القدامى يلاقون حتفهم. لم يستطيع المقرَّبون الاطمئنان إلى إرادة الطاغية بقدر ما حذروا قوّته. هكذا قَتلت اتينْ دُومِيسيانَ، وقتلتْ كومودسَ إحدى محظيّاته، كما قُتِل أنطونان على يد مارسان، وهكذا في سائرهم(58).

إن من المستيقن أن الطاغية لا يلقى الحبّ أبداً، ولا هو يعرف الحبّ. فالصداقة اسم قدسي وجوهر طاهر، إنها لا تعرف لها مَحَلّاً إلا بين الأفاضل، ولا تؤخَذ إلا بالتقدير المتبادل لا بإغداق النعم. فالصديق إنما يأمن إلى الصديق لما يعرفه من استقامته. ضمانته هي استقامته وصدق طويَّته وثباته. فلا مكان للصداقة حيث القسوة، حيث الخيانة، حيث الجور. فالأشرار إذا اجتمعوا تآمروا، ولم يتزاملوا، لا حبّ يسود بينهم بل الخشية، فما هم بأصدقاء، بل هم متواطئون.

ولو صرفنا النظر عن هذه العوائق لتبيّنّا أن من الصعب أن يضمّ فؤاد الطاغية حبّاً يوثق به، لأنه إذا علا الجميع، وعَدِمَ كل رفيق، قد خرج بهذا عينه عن حدود الصداقة التي مقعدها الحق هو المساواة، والتي تأبى دوماً التعثُّر في خطواتها المتساوية أبداً. لهذا نرى(فيما يقال) شيئاً من القسط بين اللصوص عند اقتسام الغنيمة، لأنهم متزاملون متكافلون، وإذا

كانوا لا يتبادلون الحب فهم على الأقلّ يتبادلون الحذر، ولا يرغبون في إضعاف قوّتهم بالتفرُّق بدل الوحدة. أما الطاغية فما يستطيع المقرَّبون إليه الاطمئنان إليه أبداً، ما دام قد تعلَّم منهم أنفسهم أنه قادر على كل شيء، وأنه لا حقَّ ولا واجب يجبرانه، وما دام تعريفه صار يقوم في اعتبار إرادته العقل، وفي انتفاء كل نظير، وسيادة الجميع. أليس أمراً يدعو إلى الرثاء أن كل هذه الأمثلة الواضحة، وهذا الخطر الدائم، لا تدعو أحداً إلى الاتِّعاظ بها، وأن يتقرب إلى الطاغية طواعية هذا العدد الغفير من الناس دون أن يجد أحد الحصافة والجرأة اللتين تمكِّناه من أن يقول ما قاله الثعلب، على ما ورد في الحكاية، لملك الغابة الذي اصطنع المرض: «كنت أزورك طواعية في عرينك لولا أني أرى وحوشاً كثيرة تَتَّجِه آثارها قدماً إليك، وما أرى أثراً يعود»؟.

هؤلاء التعساء يرون بريق كنوز الطاغية، وينظرون مشاهد بذخه وقد بهرتهم أشعّتها، فإذا هذا الضوء يغريهم فيقتربون منه دون أن يروا أنهم إنما يلقون بأنفسهم في اللهب الذي لن يتخلَّف عن إهلاكهم. هكذا صنع الساتير[59] الطفيلي، الذي تحكي الحكاية أنه شهد النار التي اكتشفها بروميثيوس وهي تضيء، فرأى لها جمالاً فائقاً فذهب يقبّلها فاحترق. مثله مثل الفراشة التي تلقي بنفسها في النار أملاً في الحظوة بلذّة من نورها، فإذا هي تعرف قوّتها الأخرى: قوّتها الحارقة، كما يقول الشاعر التوسكاني[60]. ولكن لنفرض أن هؤلاء الأغرار يفلتون من قبضة من يخدمون، أيعلمون أي ملك آت من بعد؟ إذا كان طيِّباً وجبت الإجابة عمّا صنعوه، ولِمَ صنعوه، وإذا كان سيئاً شبيهاً بسيِّدهم فلسوف يصحبه أيضاً أتباعه الذين لا يقنعون بالاستحواذ على مكان الآخرين، بل تلزمهم أيضاً في معظم الأحايين أملاكهم وحياتهم. أيمكن إذاً- وهذا مدى التهلكة، ومدى قلة الأمن- أن يكون هناك امرؤ يرغب في ملء هذا

المكان البائس ليقاسي خدمة سيِّد هذا مبلغ خطره؟ أيّ عذاب، أي استشهاد هذا، أيها الربّ الحق، أن يقضي المرءُ النهار بعد الليل وهو يفكّر كيف يرضي واحداً، بينما هو يخشاه مع ذلك أكثر مما يخشى أيّ إنسان آخر على وجه البسيطة! أن يكون عيناً دائمة البصّ وأذناً تسترق السمع، حتى يحدس مأتى الضربة القادمة، وموقع المصائد، وحتى يقرأ في وجوه أقرانه أيّهم يغدر به، يبتسم لكل منهم وهو يخشاهم جميعاً، لا عدواً سافراً يرى ولا صديقاً يطمئنّ إليه، الوجه باسم، والقلب دامٍ لا قِبَلَ له بالسرور، ولا جرأة على الحزن!

و لكن الأغرب هو أن نرى ما يعود عليهم من هذا العذاب الشديد، والكسب الذي يستطيعون توقُّعه من مكابدتهم وحياتهم البائسة. فالذي يقع هو أن الشعب لا يتَّهم الطاغية أبداً بما يقاسيه، وإنما ينسبه طواعية إلى من سيطروا عليه: هؤلاء تعرف أسماءهم الشعوبُ والأممُ، ويعرفها العالم قاطبة، حتى الفلاحون والأجراء يعرفونها، ويصبّون عليهم ألف قذيعة وألف شتيمة وألف سُبّة، كل أدعيتهم وأمانيهم تَتَّجه ضدّهم، كل ما يلحق بهم من البلايا والأوبئة والمجاعات يقع فيه اللوم عليهم، فإن تظاهروا أحياناً بتبجيلهم سَبّوهم معاً في قلوبهم، ونفروا منهم كما لا ينفرون من الوحوش الكاسرة. هذا هو الشرف، وهذا هو المجد: ينالون جزاء على ما صنعوه تجاه الناس الذين لو ملك كل منهم جزءاً من أجسادهم لما شقي، ولا رأى فيه نصف عزاء عن شقائه، فإن أدركهم الموت لم يتوانَ من يجيء بعدهم عن أن يظهر بينهم ألف قلم، يسوِّد بمداده أسماء آكلي الشعوب[61] هؤلاء، ويمزّق سمعتهم في ألف كتاب، وحتى عظامهم ذاتها- إذا جاز هذا التعبير- يمرِّغها الوحل عقاباً لهم بعد مماتهم على فساد حياتهم.

لنتعلَّم، إذن، لنتعلَّم مرة أن نسلك سلوكاً حسناً. لنرفع أعيننا إلى السماء

بدعوة من كرامتنا، أو من محبة الفضيلة ذاتها، أو -إذا أردنا الكلام عن علم فيقيناً بدعوة من محبة الله القادر على كل شيء، وتبجيله، ولهو الشاهد الذي لا يغفل عن أفعالنا، والقاضي العادل في أخطائنا. أما فيما يتعلَّق بي فإني لأرى- ولست بالمخدوع ما دام لا شيء أبعد عن الله، وهو الغفور الرحيم من الطغيان- أنه يدخِّر في الدار الآخرة للطغاة وشركائهم عقاباً من نوع خاص.

***



هوامش المترجم

1 - عن الإلياذة، الأنشودة الثانية، البيتان 204 ... كانت جيوش اليونانيين تحاصر طروادة منذ تسع سنوات دون أن تتمكَّن من الاستيلاء عليها، فبدأ المحاربون يستهويهم اقتراح العودة إلى ديارهم دون تحقيق النصر. إلا أن أوليس استوقفهم يشرح حجّته للقوّاد من أقرانه، فإن تحدَّث إلى جندي عَنَّفَه، وذكَّره أن واجبه الطاعة لأن الأمر والرأي إنما يكونان لواحد.

هذا ولقد كانت المدن أو الدول اليونانية الأولى(حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد)تتألّف من عصبيّات يرأسها ملوك وأمراء، مثل الذين أشاد هوميروس بحروبهم على طروادة. صحيح أن هوميروس كان يفصل بينه وبين هذه الوقائع نحو ثلاثة قرون، وأن إلهامه كان يستند في أغلب الظن إلى روايات كانت ما تزال تتردَّد على الأفواه إبان حياته(القرن الثامن ق.م)إلا أن التطابق بين أوصافه وبين ما يمكن استنباطه من الحفريات يدعو إلى الأخذ بصحَّتها. فلا شَكَّ في أن هؤلاء الملوك والأمراء كانوا يتفاخرون بانتسابهم إلى الآلهة، وأن هذا الانتساب لم يكن يلقى تصديق الجميع وحسب، بل إن عامة الناس كانت ترى فيه- تحديداً- السبب الذي من أجله تسرع إلى خدمتهم والقتال في سبيلهم. وهذه ظاهرة ما نزال نشهدها بين العشائر التي يتألّف منها كثير من المجتمعات إلى

يومنا هذا، كل الاختلاف الذي ينجم حين تعتنق هذه المجتمعات عقيدة التوحيد، هو أن الرؤساء لا ينسبون أنفسهم إلى الآلهة، بل إلى الأنبياء، والغزاة، والأبطال من كل مضمار.

أمر أخر يجدر الوقوف عنده. ذلك أن الكلمات الدالة في اللغة اليونانية(واللغة دستور الجميع إذا جاز التعبير)على علوّ المكانة(مثل أريسطوس، وأجاثوس، وأستلوس... إلخ)كانت تدلّ كذلك على السموّ الخلقي. وهذه أيضاً ظاهرة ما نزال نشهدها إلى يومنا في اللغة الإنجليزية. مثلاً حيث تدلّ الكلمة ذاتها(نوبل)على الانتماء إلى الطبقة الأرستقراطية، وعلى صفة تسند إلى أفعال الشخص أو حتى إلى ما يقدِّمه من النبيذ.

---

2 - الكلمة التي ترجمناها هنا بـ (الجماعة) هي ما يترجم اليوم بـ(الجمهورية). ولكنها كانت ترد في القرن السادس العشر بالمعنى الحرفي الذي يخرج من اشتقاقها، وهي مشتقّة من كلمتين في اللغة اليونانية: رس بمعنى شيء، وبوبليكوس بمعنى عام. ومنه كان معناها الأضبط هو المنفعة أو المصلحة العامة. ولما كانت هذه الفكرة أحد التصوُّرات الأساسية التي ينبني عليها القانون الروماني، فقد بدا لنا –بعد أن نبَّهنا إليه الدكتور إسماعيل عبد الله– أن أقرب ما يعادلها في الفقه العربي هو (تصوُّر الجماعة).

---

3 - هنا أيضاً يستخدم المؤلّف كلمة تترجم اليوم بـ (الملكية)، وترجمناها بـ (حكم الواحد) لاشتقاقها من اليوناني مونوس بمعنى واحد، و(آركي)

بمعنى السلطة أو الحكم.

---

4 - كانت الديموقراطية في أثينا(مثلها في الولايات المتحدة اليوم)لا تنفصل عن سياستها المسيطرة أو الإمبريالية، التي تكفل رغد مواطنيها. لذا أعلنت عليها الحرب عام 431 ق.م -درءاً لهذه السياسة- عددٌ من المدن أو الدول اليونانية تزعمتها إسبرطة، وهي الحرب المعروفة باسم حرب البيلوبونيز. وفي العام 404 ق.م. انتهت هذه الحرب الطويلة بهزيمة أثينا، وبأن أملت إسبرطة على شعبها مجتمعاً في مجلسه اختيار ثلاثين«محرراً»(لوغوغوافوي)أُوكِل إليهم تحرير دستور جديد. ولم يلبث هؤلاء الثلاثون، الذين ينتمون إلى الطبقة الأوليغاركية، أي إلى القلّة الثريّة ذات الحسب، أن استولوا على زمام الحكم، ولم يلبث حكمهم أن انقلب إلى رعب مسلط على الرؤوس: الجيش الإسبرطي يرابط فوق الأكروبول، الأجانب المقيمون بأثينا، ومواطنوها أنفسهم إما يقتلون أو يُشَرَّدون، أو تُصادَر ممتلكاتهم، أما الدستور الموعود فلم يرَ الضوء. وبلغت المأساة ذروتها حين قُتل زعيم المعتدلين بين الثلاثين، لاثيرامين، وانفرد بالحكم أعتاهم، كريتياس. إلا أن الطغاة لم يستطيعوا دفع جماعة من المتمرِّدين الذين ترأَّسهم ثراسيبول عن الاستيلاء على بيريه، مرفأ أثينا، بعد معركة قتل فيها كريتياس(ديسمبر - يناير 44/43 ق.م.). بهذا الانتصار تسنّى الاتفاق بين المعتدلين من الأوليغاركيين وبين الديموقراطيين اتفاقاً توسَّط فيه ملك إسبرطة. وانتهت المحنة برجوع النظام الديموقراطي في أواخر صيف 403 ق.م، والقضاء على فلول الثلاثين. ويُعَدّ هذا الاتفاق صفحة من أمجد صفحات الديمقراطية في أثينا، لأن ثراسيبول قد أمكنه من جهة فرض مطالب الشعب(أي الفلاحين والحرفيين وبعض التجار) ومن ناصره من العبيد والأجانب، ولكنه من جهة أخرى قد أمكنه إقناع

الشعب بألا يشتطّ في مطالبه إلى الحَدّ الذي يخلق حزازات وضغائن لا نهاية لها. في وقت خرجت فيه أثينا والدول اليونانية عامة من الحرب ضعيفة منهكة إلى حَدّ لم تقم لها قائمة بعده. ومكَّن فيليب المقدوني وابنه الإسكندر من افتراسها. ويذهب بعض الكُتّاب المعاصرين إلى أن الاتّفاق المذكور كان بمثابة النقلة التي حَلَّت فيها فوقية القانون أو سيادته العليا محلّ فوقيّة إرادة الشعب. ولكن المغزى الأوضح الذي يخرج من هذا الاتّفاق هو أن«القانون»إنما يعني هنا العقد، الذي تَمَّ بمقتضاه التراضي بين الطبقات في وقت لم يكن فيه بُدّ من التراضي.

---

5 - يبتدع لابويسيه في هذا الموضع لفظاً فرنسياً استمدَّه من لفظ لاتيني تجده عند شيشيرون، والمؤلّف المسرحي بلّرط، بمعنى صيغة التصغير من رجل، كما لو قلنا بالعربية«رُجَيْل». آثرنا ترجمته بكلمة«خنث»من«خنث الرجل خنثاً: كان فيه لين وتكسُّر وتثنّ، فكان على صورة الرجال وأحوال النساء فهو خنث»(عن المنجد).

---

6 - ثار نقاش حول من المراد بهذا الوصف: أهو شارل التاسع أو هنري الثالث؟ ولكن الأصح أن المؤلف إنما أراد أن يرسم صورة أنموذجية، وإن صدقت على كثير من الحكام، دحضاً للرأي القائل بأن هناك من جُعِلوا بطبيعتهم للسيادة، وهناك من جُعِلوا مسوَّدين.

---

7 - ميلسيادس قائد أثيني تحقَّق بفضله أول انتصار حازه الإغريق ضدّ الفرس، وذلك في معركة (ماراتون) عام 490ق.م. ثيميستوكل قائد آخر

يرجع إلى سياسته تقوية الأسطول الأثيني، ويرجع إلى براعته ونبوغه الفضل الأول في انتصار اليونانيين الحاسم في معركة (سلامين)البحرية عام 480ق.م.، التي انتهكت بها حملة كسركس الثانية، التي كان قد أَعَدّ لها جيشاً يُقَدَّر بمئة ألف مقاتل، وأسطولاً يُقَدَّر بألف سفينة. أما ليونيداس فإسبرطي خلّد ذكره استشهاده مع ثلاثمئة من رجاله في معركة مضيق ثرموبيل، التي خاضها بغية تعويق تقدُّم الفرس في البر. هذا ولقد صار هذا الانتصار رمزاً إلى انتصار الحرية على الاستبداد. وصحيح أن شعوب الإغريق كانت لها في إدارة شؤونها مشاركة حرمت منها في أغلب الظن شعوب العدو، وأن هذا الفارق ربَّما لعب دوراً في هذا الانتصار. ولكن ذلك لا يمنع أن هذه الحرب -أياً كان وجه استخدامها لأغراض الرمز- كانت في واقع أمرها صراعاً ضارياً بين قوتين تهدف كل منها إلى السيطرة على المعمورة: فارس، وأثينا. ومن المعلوم أن المدن أو الدول اليونانية ما إن تحقَّقَ لها هذا النصر المشترك حتى عادت إلى تفرُّق بعد اِتّحاد، وحتى شَنّ بعضها الحرب على أثينا في حرب البيلوبونيز التي سبقت الإشارة إليها.

---

8 - أول نصّ تشريعي صاغ فكرة القانون، أو الحق الطبيعي هو (موسوعة القانون الروماني) التي قام (تريبونيان) بجمعها وتبويبها وتعريف تصوراتها الأساسية والإشراف على تحريرها، بأمر من الإمبراطور جوستنيان، أمام رجال القانون في عصره: تريبونيان. يبدأ النص بهذا التعريف:«قانون الطبيعة هو القانون الذي غرسته الطبيعة في جميع المخلوقات». تلي ذلك التفرقة بين هذا القانون المُسَمّى أيضاً باسم«قانون كافة الشعوب»و«بين قانون الدولة»، أي القانون الخاص بهذه الدولة أو تلك، ثم بيان عن سبب هذه التفرقة:«إن ضرورات الحياة الإنسانية بمطالبها قد أدَّت

بشعوب العالم إلى سَنّ شرائع معيَّنة: نشبت الحرب بينها، وأُسِر البعضُ وصاروا عبيداً خلافاً لقانون الطبيعة. فالناس بحسب قانون الطبيعة وُلِدوا أحراراً في البدء». هذا بينما «تصدر جميع العقود تقريباً عن قانون كافة الشعوب، سواء أتعلَّق الأمر ببيع أو أيجار أو شركة أو إيداع أو قرض أو غيره» فكل شعب يطبِّق قانوناً يخصّه جزء منه، ويشترك بجزء آخر منه مع غيره. ولقد استعاد مفكِّرو العصور الوسطى، الذين لم تكن فكرة الدولة عندهم قضية مُسَلَّمة، لأنهم إنما كانوا يشهدون دولاً جديدة آخذة في النشوء على أنقاض الدولة الرومانية المندثرة، استعادوا فكرة القانون الطبيعي هذه، لأنهم واجهوا هذا السؤال: كيف يمكن ألا يكون القانون إلا بالدولة ومن أجلها وفي ظلها، وألا تكون الدولة إلا بالقانون ومن أجله وفي ظله؟ فوجدوا المخرج في التمييز الذي فصله بنوع خاص القديس توماس الإكويني بين «القانون الطبيعي» و«القانون الوضعي». هذا وقد تجدَّد في عصرنا الاهتمام بمناقشاتهم في هذا الباب كما في غيره، خاصة وأن السؤال الذي أثاره قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بسؤال آخر لا يقلّ عنه حِدّة: هل جوهر القانون هو العقل أم الإرادة؟

---

9 - لا شَكَّ أن لابويسيه يلمِّح هنا إلى نظرية أذاعها المشرِّعون الإنجليز في عصر أسرة تيودور مؤدّاها أن للملك جسدين: أحدهما مادي فانٍ، والآخر غيبي لا يتطرَّق إليه الفناء. هذه النظرية المضحكة فيزيولوجياً كانت لها وظيفة سياسية بالغة الأهمية، هي إدخال التمييز بين ما يعود من الحكم إلى شخص الحاكم، وما يعود إلى وظيفته أو منصبه. هذا التمييز هو الذي سمح للإنجليز بمحاكمة الملك شارل ستوارت وإعدامه بتهمة الخيانة، دون أن يذهبوا إلى إلغاء الملكية كما فعل الفرنسيون في 1793، لأن «الملك» -كما قال أحد قضاتهم-، اسم للدوام، باقٍ بما هو

رأس الشعب وحاكمه(حسب القانون)طالما بقي الشعب ... وفي هذا الاسم لا يموت الملك أبداً. أضف أن هذه النظرية مستقاة لا من العقائد النصرانية عن المسيح والكنيسة وحسب، بل أيضاً –وأكاد أقول أولاً– من استعارة الجسد من حيث تطلق على كل مجتمع ديني أو مدني، وعلى مقوّماته المختلفة بما فيها الاتحادات المهنية والجامعية التي لعبت دوراً هامّاً في تطوُّر الغرب، والتي يطلق عليها في لغاته اسم ترجمته الحرفية «المتجسِّدات».

---

10 - المراد بالأكاديميين هنا هم أشياع الفلسفة الأفلاطونية في القرن السادس عشر. ففي 385 ق.م، على أرجح التقدير، أسَّسَ أفلاطون، في ضاحية من ضواحي أثينا، مدرسة عرفت باسم (الأكاديمية) لوقوعها في حديقة وملعب عُرِفا بهذا الاسم، نسبة إلى البطل أكاديموس. استمرَّ نشاط هذه المدرسة تسعة قرون، إلى أن حَلَّها جوستينيان في 529 ب.م. وفي القرن الخامس عشر، بعد أن سقطت القسطنطينية في يد الترك، وهجرها العلماء الإهيللينيون، سنحت للغرب معرفة المخطوطات المشتملة على محاورات أفلاطون ورسائله، وما لبث أن ظهرت لها ترجمات متعدِّدة. ومع هذا ظلت الجامعات تعرض عن تدريس فلسفته لغلبة الفلسفة الأرسطية عليها. لهذا عاد الفضل في نشر الفلسفة الأفلاطونية، التي لم يتمّ انتصارها إلا في القرن السابع عشر، إلى رجال عرفوا باسم (الأكاديميين). ولم يكن غريباً أن يَتَّجه أول اهتمام هؤلاء إلى مسائل الفلسفة السياسية التي اشتغل أفلاطون بها اشتغالاً لا يكاد يترك مجالاً للشكّ، في أنه إنما أسَّس مدرسته بغية تكوين التلاميذ تكويناً يؤهِّلهم لخدمة المدينة على أفضل وجه.

11 - لا وجود لهذين البيتين في أشعار لابويسيه التي نشرها مونتني.

---

12 - عضو برلمان بوردو الذي أخذ لابويسيه مقعده، وإليه أهدى مخطوطه.

---

13 - إشارة إلى ما ورد في العهد القديم(صموئيل الأول، الإصحاح الثامن)من أن كل شيوخ إسرائيل اجتمعوا، وجاءوا إلى صموئيل يسألونه أن يجعل لهم مَلِكاً يقضي لهم كسائر الشعوب(وكان يحكم إسرائيل قضاة)فساء الأمر في عيني صموئيل، فصلّى إلى الرب، فأمره بأن يصنع ما طلب الشعب بعد أن ينذره. فأنذره:«هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم. يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه، فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه رؤساء ألوفاً ورؤساء خماسين، فيحرثون حراثه، ويحصدون حصاده، ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بناتكم عطّارات وطبّاخات وخبّازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشّر زروعكم وكرومكم، ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبّانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً. فتصرخون في ذلك اليوم في وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الربّ في ذلك اليوم. فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك». ومما يذكر أن اختيار صموئيل قد وقع بإيعاز من الربّ شاول. فجعله ملكاً بأن أخذ «قنينة الدهن وصبَّ على رأسه، وقال: أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً؟». وهكذا بدأت طقوس الدهن التي سبقت الإشارة إليها في التراث اليهودي المسيحي.

14 - كان بيستراتس ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة. برز في الحرب بين أثينا وميغارا، حوالي العام 565 ق.م. فلما دَبَّ الانقسام في أثينا بين الحكّام ترأَّس هو فريقاً أو حزباً ثالثاً ضَمَّ إليه المعتقين والمدقعين، ثم نصَّب نفسه طاغية بحرس منحه إياه الشعب، عام 561 ق.م. غير أن أعداءه تحالفوا عليه فطردوه من الحكم بعد أن ظل يمارسه زهاء خمس سنوات، فلم يستتب له الاستبداد به إلا بعد أن رجع وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً عام 546 ق.م. مات عام 527 بعد مرضٍ. ولقد حرص بيستراتس على الالتزام بدستور صولون فلم يذهب إلى حَدّ مصادرة أملاك النبلاء وتوزيعها بالتساوي، ولكنه شَجَّعَ صغار الملّاك بتيسير القروض لهم، وعمل على إزاحة البطالة من الريف معتمداً في هذه السياسة على الضرائب المفروضة على الإنتاج والتجارة، في وقت ازدهرت فيه صناعة الخزف، وانتشرت في كل بلاد اليونان، جمّل أثينا وجمع أشعار هوميروس ونشرها، وكان من نتائج حكمه الطويل أن أضعف قبضة النبلاء على أشياعهم، وشَجَّع ظهور الفردية في كثير من المجالات، مما مَهَّد الطريق لعودة الديموقراطية بعد أن تخلَّص الشعب من أبنائه.

---

15 - ديونيسيوس بين 430و367 ق.م. تقريباً. في عام 406 أخفقت سيراقوصة في تحرير اجريجنتا من قبضة القرطاجنيين، فتسنى له إقناع مجلس الشعب بانتخاب قواد جدد بينهم هو. ثم لم يلبث أن أزاح زملاءه وتزود بحرس خاص، وظلَّ انتخابه على رأس الدولة يتكرر تكرراً منتظماً إلا أنه أخفق في وقت تقدم القرطاجنيين، وواجه ثورة أرستقراطية جعلته يقبل صلحاً باهظاً مع قرطاجنة. فلما تغلَّب على المعارضة الداخلية عاد إلى محاربتها حتى انتصر عليها، وصَدَّ غزواتها المتعددة. ثم بعدئذ وسع سلطانه على الجزء الغربي من صقلية، وعلى إيطاليا، حتى امتدَّ نفوذه إلى

الأدرياتيك. كان ديونيسيوس طاغية من الطراز الأول، اتَّسَم حكمه بمزيج من البأس والحنكة والأبهة ما زال يثير العجب حتى اليوم.

---

16 - المراد ميثريدات السادس ملك بونطوس جنوب البحر الأسود. حكم بين 120و63 ق.م. ازدحمت حياته بالأحداث العاصفة. أولها مصرع أبيه، ووصيّةُ تدعو إلى الارتياب يستخلف فيها زوجته وولديه الأصغرين. فَرَّ من أمه، وظلَّ هارباً حتى عاد فجأة إلى العاصمة سينوب فحبس أمه، وقتل أخاه، وتزوَّج أخته. ثم استأنف سياسة والده التوسُّعية فاستولى على معظم آسيا الصغرى، وامتدت فتوحاته إلى اليونان حيث ردَّه الرومان. وقعت بينه وبينهم عدة حروب انتهت باستيلائهم على بونطوس، وبثورة الرعية، وعلى رأسها ابنه فارناسس. فلما أراد الانتحار تبيَّن أن نظاماً من الوجبات الوقائية قد جعل له مناعة ضدّ السم. فمات بسيف حارس من حراسه وقد بلغ به العمر 69 عاماً. لا شكّ أن ميثريدات كان أصلب أعداء روما عوداً في مكره وشجاعته وقدرته على تعبئة الجيوش وتنظيمها. ولكنه خلا من المهارة في التخطيط، وعجز عن الاحتفاظ بولاء رعيَّته. ثم هو -في النهاية- لم يكن يمثِّل تمثيلاً صادقاً لا اليونانيين الذين كان يميل إليهم، ويحب التشبُّه بهم (تدلّ صوره على تقليد الإسكندر)، ولا الإيرانيين الذين كان يتكوَّن منهم العنصر الغالب بين أبناء شعبه.

---

17 - كان مثقَّفو عصر النهضة يرون في جمهورية مدينة البندقية المثل الأجمل للحرّيّة، حتى إن لابويسيه كان يؤثر لو أنه وُلِد فيها، على ما يخبرنا به صديقه مونتني(المقالات، الكتاب الأول، الفصل 28). ولكن الحقيقة هي أن الأمر كان له وجهان: فالبندقية شأنها شأن جميع المراكز

العمرانية الكبرى التي يؤمّها التجار والصيارفة، وصانعو الثروات من كل حدب وصوب، كانت تتمتَّع فعلاً بحرّيّة اجتماعية واسعة تتيح تجاور الجميع على اختلاف عاداتهم وأزيائهم. أما من الناحية السياسية فقد احتكرت الحكم فيها، منذ القرن الرابع عشر، طبقة من الأعيان ذوي الثروات الطائلة انقطعت صلتها بالشعب(وأعني -بالأخص- الحرفيين الذين كان لهم -على العكس- دور مهم في فلورنسا)وإن حرصت على ألا ينفرد به واحد منهم. لهذا أسندت السلطة إلى مجلس العشرة. هذا المجلس، الذي ندر أن حاذاه جهاز في اتجاهه المحافظ، هو الذي كان يقوم بانتخاب الدوق المنوط به تجسيد قوة البندقية، ولكن مع قيود ترمي جميعها إلى تخفيف دوره الشخصي.

---

18 - سلطان تركيا. ننبِّه إلى أن الشعوب الأوروبية كانت تتسمّى في القرن الثالث عشر باسم المسيحية أو بلاد المسيحيين، وهي تسمية كانت تصدر عن الشعور بالوحدة الدينية التي بثته فيها الحروب الصليبية، وفي القرن الخامس عشر ظهرت التسمية باسم أوروبا أو الشعوب الأوروبية. لا لأن هذه الشعوب كانت قد تحقَّقت بينها وحدة سياسية، فقد حدث العكس: صارت فكرة الإمبراطورية الواحدة أو الشاملة ادّعاء لا صلة له بالواقع، بينما بدأ ظهور الدول الحديثة بانقسام الشعوب الأوروبية إلى ممالك يحكم كل منها ملك غيور على استقلاله، كما تدلّ عليه العبارة الجارية إذ ذاك:«كل ملك إمبراطور على مملكته». إلا أن هذه الشعوب كان يبدو لها أن ملوكها هؤلاء، وولاة الأمر فيها كانت لهم فيما بينهم، وفي تعاملهم معها، قواعد تختلف عمّا يتبعه طغاة الشرق، ومنه كان ظهور التسمية الجديدة ينطوي على تعريف الغرب لنفسه بالحرية السياسية، أضف إليه تقوّي الشعور بالوحدة الثقافية، ثم حاجة التمييز الجغرافي

بالنسبة إلى الأرض المكتشفة حديثاً، وأعني بها القارة الأميركية. فأما نصيب هذا التعريف من الصحّة أو الكذب فهذا ما يستحق أن يُفرَد له مبحث خاص.

---

19 - «ليكورج» مشرِّع نسب إليه الإسبرطيون دستورهم ونظامهم السياسي والاجتماعي، وظلوا حتى منتصف القرن الرابع ق.م. يوجِّهون إليه من مظاهر التبجيل ما لا يحظى به إلا الآلهة. أما العصر الذي عاش فيه فهذا ما اختلفت فيه الروايات اختلافاً تفاوت بين القرنين التاسع والسادس ق.م. هذا الاختلاف وهذا التبجيل المفرط جعلا بعض الكُتّاب ينحون إلى الشك في وجوده، محتجّين أيضاً بأن الكثير من سمات نظامه تشبه السنن القبلية البدائية. ولكن معظم الثقاة يتَّفقون على أن قواعد النظام الإسبرطي قد أُرسِيَت في القرن السابع ق.م.، وأنه ما من حجة تمنع الاعتقاد بأن إرساءها هذا كان من صنع مشرِّع واحد عظيم.

---

20 - ورد اسم لاسيدومونيا في هوميروس مرادفاً لإسبرطة. ثم غلبت دلالته الجغرافية والسياسية، إذ أطلق على هذه المدينة وعلى الريف التابع لها بما هي جميعها وحدة سياسية. بينما تتكثَّف حول إسبرطة مستدعيات تاريخية شعرية فلم يستخدم اسمها أبداً للدلالة على الأرض دون المدينة.

---

21 - كاتو(95 - 46 ق.م.)أحد كبار رجال الدولة الرومانية في أواخر عهد الجمهورية. عُرِف بصرامته وبانتصاره الذي لا يلين للمبادئ. انضمَّ إلى بومبي حين قامت الحرب الأهلية بينه وبين يوليوس قيصر. وانتهت

به تقلُّبات هذه الحرب بأن حاصرته قوات قيصر، وهو في أوتيكا(مدينة على الساحل الأفريقي لا تبعد عن قرطاجنة)حيث مات موتاً مشهوداً ممزِّقاً أحشاءه بيده، كما ورد في «سير الأعلام» لبلوتارك.

---

22 - سيلّا(138 - 78 ق.م.)هو أول قائد روماني استغلَّ قوته بين العسكر فاستحوذ على زمام الدولة مستهدفاً تقوية الجمهورية فيما يبدو ،ولكنه في الواقع إنما رسم المثل الذي احتذاه بعد ذلك من هدموها. بلغ من إمعانه في مصادرة الأموال والنفي والاغتيال أن عَمَّ الخوف مناصريه أنفسهم.

---

23 - السمريّون(وبالآشورية الجمريّون الوارد ذكرهم في التوراة، سفر التكوين)شعب أقام على شواطئ البحر الأسود حيث الاتحاد السوفييتي سابقاً، ثم طرده السكيثيون، فأغار على آسيا الصغرى مقوّضاً عرشها، ناشراً الذعر في ربوعها، إلى أن قضت عليه شيئاً فشيئاً الأَوبئة وحروبه ضد الليديين والآشوريين. ولكنه يرد في الإلياذة للدلالة على شعب أسطوري يستوطن أبعد بقاع المعمورة، حيث لا تشرق الشمس أبداً، وإليه قصد أوليس بغية استحضار الموتى، واستفسار العرّاف ثيريسياس، الذي كان يُنسَب إليه العلم بالغيب. الراجح أن لابويسيه يلمِّح هنا إلى أسطورة أهل الكهف عند أفلاطون.

---

24 - يتضمَّن النصَ هنا رأياً قانونياً يدحض الرأي القائل بأن أساس الحقّ هو العادة أو العرف. وتتأيَّد هذه الدلالة -إذا تنبَّهنا- إلى أن الكلمة الفرنسية التي ترجمناها بـ(الغبن) تعني حرفياً -إذا رجعنا إلى اشتقاقها- انتفاء الحق أو عدمه.

25 - التعبير الفرنسي ترجمته الحرفية (التركي الكبير)، ولكنه ينطوي على استخفاف، ثم إن حامله كان يُعَدّ الرمز الأول للطغيان. ولا يُكَذّب كلام لابويسيه -هنا وإن لم يكف- في تأييده ما يخبرنا به الدكتور إبراهيم سلامة في رسالته المُقَدَّمة إلى السوربون عام 1939، عن التعليم الإسلامي في مصر من أثر سياسة الأتراك في القضاء على المدارس.

---

26 - هذا الإله الساخر شخصية مسرحية أكثر من كونه خلقاً أسطورياً.

---

27 - فولكان إله النار والحدادة، هيفايستوس عند اليونان.

---

28 - بروتوس وكاسيوس قاتلا يوليوس قيصر.

---

29 - هارموديوس وأرسطوجيتون شابان أرادا قتل هيساس الذي تولّى حكم أثينا مع أخيه، بعد موت أبيهما بيستراتوس(انظر هامش 14)، ولكنهما، أخفقا وماتا شَرّ ميتة. رأى الأثينيون في موتهما استشهاداً، وأشادوا بذكرهما ملقّبين إياهما بلقب (مانحي الإيسومونيا)،أي وهو المساواة أمام القانون.

عن ثراسيبول انظر الهامش (4). أما بروتوس الأقدم وفالريوس، فكانا بين مؤسِّسي الجمهورية الرومانية. أما ديون فكان صهراً لديونيسيوس الأول الذي سبق ذكره(هامش 15). أراد أن يجعل من ابنه ديونيسيوس الثاني ملكاً فيلسوفاً متأثّراً في ذلك بعلاقته بأفلاطون والأكاديمية.

فلما أخفق خَلَّصَ البلد منه ، ولكن زمام الأمور أفلت من يديه، فاشتدَّ وتعسَّف، برغم ادِّعائه الاستناد إلى المبادئ الفلسفية، حتى قُتِل بدوره.

---

30 - عاش كسينوفون بين 427 و354 ق.م. وضع كتباً كثيرة، ربما كان أشهرها دفاعه عن سقراط. انفرد باهتمامه بالقضايا المالية والاقتصادية. أما الكتاب الذي كتبه في شكل حوار، كما ينبغي لرجل تتلمذ على سقراط، فيشير عنوانه «هيرون» إلى طاغية فتح بلاطه للشعراء والفلاسفة، بينما زادته انتصاراته في الألعاب صيتاً على صيت. مات عام 476/ق.م. وكان سيمونيد، وهو طاغية آخر حكم جزيرة رسبوس، قد زاره في سيراقوصة عام 476 ق.م.

---

31 - حمل كثير من رجال الدولة الرومانية اسم سيبيون. لُقِّبَ أحدهم بـ(الإفريقي) لأنه فتح إفريقية.

---

32 - من مسرحية «الخَصِيّ»، الفصل الثالث، المشهد الأول.

---

33 - المراد كسرى الأكبر، الذي أسَّس الإمبراطورية الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد، وليديا من ممالك آسيا الصغرى.

---

34 - طريقة في اصطياد العصافير تقوم على استدراجها بالصفير لها على

نحو مُعَيَّن.

---

35 - موائد يلتفّ حولها أفراد الشعب، عشرة حول كل مائدة.

---

36 - فَرَّ (نيرون) من روما بعد أن تمرَّد عليه حكّام الأقاليم، ولفظه الشعب بجميع طبقاته. فلما لحق به مطاردوه انتحر في مخبئه وهو يولول، غير مصدِّق لما يحدث له، هكذا كان مبلغ فتونه بنفسه.

---

37 - وصف دقيق لهذا المؤرِّخ الذي ولد عام 56 بعد الميلاد، ولا نعلم على التحقيق متى مات. تقلَّب في أرفع المناصب، وكتب كتباً كثيرة أشهرها المعروف باسم «التواريخ». وصف فيه الحرب الأهلية بما زخرت به سواء من المطامع والمؤامرات، أو من أمثلة الشجاعة والصداقة، وصفاً لا يدانى في قوته.

---

38 - وصف المؤرِّخ سويتون جنازة قيصر في كتابه «حياة القياصرة الاثني عشر» فقال: فلما أُعِلن عن موعد الجنازة نُصِبت المحرقة في ميدان مارس(إله الحرب) بجانب قبر يوليا (ابنة قيصر)،وشُيِّد تجاه منصة الخطابة مبنى مطليّ بالذهب، على طراز معبد فينوس الوالدة، وُضِع به سرير من العاج غُطِّي بالأرجوان والذهب. ووُضِعت على رأس السرير شارات انتصارات قيصر مع الثياب التي كان يرتديها حين قُتِل. ولما تبيَّن أن اليوم كله لن يكفي لمرور الناس الذين اصطفّوا حاملين قرابينهم. صدر قرار بأن يحمل كل من شاء قرابينه إلى ميدان مارس متبعاً أي طريق

كان دون الانتظام في الصف. وفي خلال الألعاب الجنائزية تغنّى الناس بالأشعار التي تثير الشفقة على قيصر، والنقمة على قاتليه، مثل هذا البيت ...«أَوَجَب أن ينقذهم ليصبحوا قاتليه؟»وأبيات أخرى بالمعنى نفسه ...، واكتفى القنصل أنطونيو(مارك)في رثائه بأن طلب إلى أحد المنادين أن يقرأ مرسوم مجلس الشيوخ الذي أسبغ على قيصر بالإجماع كل التشريفات الإلهية، والإنسانية، وكذلك العهد الذي كان جميع الشيوخ قد أقسموا فيه على الذود عن حياة قيصر. ولم يضف هو إلا كلمات قليلة، ثم بعدئذ حمل النعش إلى الميدان أمام منصّة الخطابة عدد من كبار رجال الدولة الحاضرين والسابقين. وكان البعض يرى حرقه في معبد جوبيتر على الكابيتول، والبعض الآخر في مجلس الشيوخ. وإذا برجلين تمنطق كلاهما بسيف، وحمل بيده رمحاً يشعلان فيه النار فجأة بشموع موقدة. ولم يلبث جمهور المشيّعين أن كَدَّسَ حوله الحطب والمقاعد ومنصّات القضاة، ثم جمع الهدايا التي وسعه أن يجدها. بعدئذ خلع لاعبو المزامير والممثلون ثياب الاحتفال بالنصر، التي كانوا ارتدوها لهذه المناسبة، وزجّوا بها في النار، كما زَجَّ قدماء الجنود الذين حاربوا تحت لوائه بالأسلحة التي كانوا قد تزيَّنوا بها للمشاركة في جنازته. لا بل إن عدداً كبيراً من الأمهات رمت في النار حليّها وحليّ أطفالهن وعباءاتهم. إلى جانب هذه المظاهر العامة التي تجلّى فيها حزن الجمهور أدَّت الجاليات الأجنبية مراسم الحداد، كل جالية على حدة حسب طقوسها، وبخاصة اليهود الذين ذهبوا إلى حَدّ التجمُّع حول قبره ليالي متعدِّدة، (لأن قيصر هو الذي هزم بومبي الذي كان قد استولى على القدس).

و بعد أن انتهت الجنازة على الفور شَيَّد له العامة عموداً من مرمر نوميديا بلغ ارتفاعه نحو العشرين قدماً، ونقش عليه: «إلى أبي الوطن».

39 - لقب (وكيل الشعب) يحتاج إلى بعض الإيضاح. ذلك أن رومولوس كان قد قَسَّمَ الشعب الروماني تقسيماً إدارياً (وليس على أساس صلات الدم، أو الرحم) إلى عشر قبائل يترأَّس كلاً منها عشرة آباء أو شيوخ، ويتكوَّن من مجموعهم المجلس المعروف بهذا الاسم. أما الملك فلم يكن يتولّى الحكم بالوراثة، بل كان يستخلفه سابقه. فإن مات السابق دون أن يستخلف أحداً تناوب الشيوخ الحكم إلى أن يختار الشعب ملكاً بشرط أن يوافق الشيوخ على اختياره. وكانت سلطة الملك،أو بالأدق إمارته المدنية(أمبريوم)إمارة مطلقة تشمل حقّ السلْم والحرب، وحقّ الحياة والموت على جميع سكّان المدينة. ثم هي كانت لا تنفصل عن إمارته الدينية(آوسبيسيوم)التي تبيح له حقّ استشارة الآلهة لمعرفة مشيئتهم في شؤون السياسة والحرب والقضاء. وفي القرن الخامس قبل الميلاد سقط النظام الملكي، وحَلَّت مَحَلَّه «الجمهورية»(انظر الهامش 2). ولكن جميع الوظائف القيادية في إدارة الدولة ظلت بيد الشيوخ وأُسَرهم، فنجم عن ذلك شقاق هَدَّدَ بانصداع الأمة كلها لولا أن العامة ظفرت بحق انتخاب وكلائها الذين يتحدَّثون باسمها دفاعاً عن مصالحها. ولم يكن هؤلاء الوكلاء يشاركون في الحكم مشاركة إيجابية، ولكن، كان في مستطاعهم حماية شرف العامة ومصالحها بممارسة حق الفيتو إزاء جميع القرارات الإدارية، وإزاء القوانين التي يصدرها مجلس الشيوخ على السواء. هذا ولقد كانت كلمة (تريبونوس) اللاتينية التي ترجمناها بـ (الوكيل) مشتقة من كلمة (تريبوس) بمعنى قبيلة، لأن كل قبيلة كانت تختار وكلاءها. ويقال أيضاً لبعضهم ماجستير، ومعناه: كل موظف في جهاز الدولة، وإن غلب بعد ذلك إطلاقه على القضاة خاصة.

---

40 - كان «لونجا»، وهو عضو برلمان بوردو، الذي أخذ لابويسيه

مكانه، يعلم بطبيعة الحال نصوص القرارات والمراسيم الملكية التي لم يكن يخلو واحد منها من نفاق التعلُّل بالخير المشترك، والمنفعة العامة.

---

41 - كان ملوك مصر القديمة -وكذلك ملوك آشور - شيئاً يزيد على البشر فعلاً، كما يقول لابويسيه. كان فرعون أقرب إلى الشمس منه إلى سائر الخلق: فهو ابن رع، وإلى السماء منه إلى الأرض: فهو حوريس المحلِّق فوق القبة الزرقاء، وكانت له بعد الممات حياة يُبعث إليها في شكل أوزيريس. ثم هو كان الوسيط بين الآلهة والبشر، يضمن لأولئك أداء الفرائض ولهؤلاء الرغد والعدالة والنصر. لذا سُمِّي حكمه حكماً ثيوقراطياً أو ربوبياً(ثيو: باليونانية = إله أو رَبّ). وكان حصول هذه المكانة فيه يتحقَّق بطقوس من نوع ما يُسَمّى في الأنثروبولوجيا (طقوس الانتقال)، يدبِّرها الكهنة تدبيراً دقيقاً أهمّها -عدا التزيية والتتويج- التطهير بالماء، والدهن بالزيت، ومنه سُمِّي الملك في المسيحية بعد أن انتقلت إليها بعض هذه الطقوس عبر التوراة باسم«دهين الله». هذا إلا أن القيمة الكبرى التي كان يعلِّقها قدماء المصريين على الإلهة من (الحقيقة والعدالة)كانت تحول دون جنوح الحكم الفرعوني إلى ما يُسَمّى (الحكم المطلق)، وإن تكن هذه القيمة قد بقيت في صورة العرف دون أن تَتَّخذ شكل التشريع. أضف أن هذه المكانة التي كان فرعون يعلو بها سائر البشر لم تكن تُضفَى عليه من حيث وجوده الفردي البيولوجي بل من حيث وظيفته العامة. لذا يخطئ القارئ إذا ظن أن هذه التعلية قد امَّحت اليوم آثارها بفضل التقدُّم. فلفظُ فرعون نفسه لفظٌ مركَّب من كلمتين تعنيان بالمصرية القديمة (البيت الكبير)، مثلما نقول اليوم البيت الأبيض، أو الإليزيه، دلالة على رؤساء الدول المعاصرين. أما الأغاني التي كانت تصحب طقوس الدهن أو التتويج، كهذه الأغنية:«ليفرح البلد

كله فقد جاء الزمن السعيد. علا سَيِّد جميع الأراضي ... والغمر فاض والنهار طال. الليل انضبطت ساعاته والقمر يرجع في مواقيته»، فهل ثمة مَنْ ينكر أن التغنّي بالحكّام من شيم الشعوب؟

---

42 - بيروس (219 - 272 ق.م.) هو أشهر ملوك إبيروس بجوار مقدونيا. بهر معاصريه ببراعته في فنون الحرب والقتال وبمهارته الانتهازية في مجال السياسة، ولكنه لم يحقِّق نصراً دائماً. ربما كان أهمّ آثاره أنه حَوَّل إبيروس إلى دولة قوية مندمجة اندماجاً تاماً في العالم الهلليني.

---

43 - ولد فسباسيان عام 9 م. كان أبوه جابياً للضرائب، وكانت أسرة أمه تنتمي إلى ما يسمّى في روما (طبقة الفرسان)، وهي طبقة تقلّ درجة عن طبقة الشيوخ، وإن يكن أخوها قد دخل مجلسهم. تقلَّب في أكبر مناصب الدولة المدنية والعسكرية، ثم لَمّا احتدم الصراع حول خلافة الإمبراطور (جالبا) أعلنت فرقتان رومانيتان بالإسكندرية اختيارهما له إمبراطوراً في الأول من يوليه عام 69، ولم يلبث أن حذت حذوها الجيوش الرومانية في فلسطين وسوريا. كان ذا طاقة كبيرة على العمل، متواضعاً في حياته، محبّاً لأسرته حبّاً انحرف إلى المحاباة، حتى إنه استخلف ولديه كالمُتَّبَع في ممالك الشرق وبخلاف المُتَّبَع في روما. ربما كان أعظم منجزاته إنهاء الحرب الأهلية ونشر السلام. هذا ولقد كان الاعتقاد بقدرة الملوك على إتيان الشفاء لا يزال سارياً في عصر لابويسيه في فرنسا وإنجلترا على السواء. كان المرض -بالتحديد- هو البرص، وكان الشفاء يتلمَّس المواضع المصابة ورسم علامة الصليب تتلوه صدقة نقدية. وكان المفروض أن هذه الكرامة تدخل فيما يحصل للملك بفضل طقوس الدهن. ولم يبطل هذا الاعتقاد، لأن الوقائع كَذَّبَتْه فكون العلّة تدخل في

سجلّ الوهم لا يمنع قدرتها على إحداث نتائج تدخل في سجلّ الواقع، ولكن بفضل الثورات السياسية التي بدأت في إنجلترا وفرنسا.

44 - ورد ذكر سالمونيوس في النشيد السادس من ملحمة فرجيل، عن وقائع إينيه، على أنه ملك إليدا في شمال شبه جزيرة اليونان قريباً من البحر الأيوتي. يتردَّد في هذه القصة صدى الطقوس السحرية المبنيّة على تقنية المحاكاة: كقرع الطبول استثارةً للرعد.

---

45 - كانت هذه الرموز تزيِّن خواتم الملوك وأختامها وأزياءهم وسلاحهم ومتاعهم، وكان كل منها بمثابة نواة تراكمت حولها الحكايات والأساطير على مَرّ العصور. فالزنابق -مثلاً- أصلها أن الملك كلوفيس قبل أن يهتدي إلى المسيحية كانت رموزه الأهلّة(وهنا تنطوي القصة على خلط بين الوثنية والإسلام). ولكن ناسكاً أعطى زوجته المسيحية كلوتيلد درعاً يحمل الزنابق الثلاث مؤكِّداً لها أن زوجها منتصر به، فما انتصر تُنصَر معه كذلك الشعلة الذهبية(وهي راية في صورة الشعلة أكثر استخدامها استخدام زخرفي في مواكب الملوك)قصتها أن إمبراطور القسطنطينية رأى في المنام فارساً يقف بجانب مضجعه وبيده رمح خرج منه اللهب، وعندئذ بدا له ملاك يُنَبِّه إلى أن هذا الفارس لا أحد غيره هو الذي سوف يخلِّص أراضيه من قبضة العرب. وكان هذا الفارس هو شارلمان ملك الفرنجة. ولكن أحبّ هذه القصص إلى النفوس، وأثبتها في الاعتقاد لاتِّصالها بالمشاعر الدينية، كانت تلك المتعلِّقة بالقارورة أو القنِّينة المقدَّسة، وهي زجاجة صغيرة كانت تحوي الزيت الذي كانت تقتضي الطقوس بدهن الملك به كما سبقت الإشارة إليه. قيل إن القسّ المكلَّف بإحضار الزيوت الطاهرة قد عاقته حشود الجماهير عن الوصول في الميعاد يوم تعميد الملك كلوفيس، فهبطت يمامة من السماء تحمل

إلى القديس ريمي(الأسقف المُعَمَّد)«أنبولة» صغيرة حوت الزيت المطلوب. هذا الدهان الذي ليس من هذه الأرض ظلَّ محفوظاً في قارورته الأصلية بكاتدرائية رانس، وهكذا كان تتويج ملوك فرنسا يتمّ دائماً في هذه المدينة.

---

46 - أغلب الظن أن لابويسيه لا يشير هنا إلى رموز الملك، بل إلى إمارات العرق، مثل علامة الرمح التي قيل إنها تميِّز العائلات النبيلة في طيبة اليونانية. نُسِجت أمثال هذه الروايات عن الملوك المسيحيين في القرون الوسطى، فقيل إنهم يتميَّزون بعلامة في هيئة الصليب على الكتف الأيمن دليلاً على اختيار الله لهم.

---

47 - ينتمي هؤلاء الشعراء الثلاثة إلى جيل قريب العهد باكتشاف ذخائر الأدب اليوناني، فكانت أولى رغبات المثقَّفين -في وقت بدأت تتأجَّج فيه المشاعر الوطنية مع تحقُّق وحدة المملكة، على يد أسرة فالوا- هي أن يسبغوا على اللغة الفرنسية وشعرها الجمال الذي أحبّوه في اليونانية. أعلن بلاي مذهبهم في كتابه «دفاع وبيان عن اللغة الفرنسية» الذي نُشِر عام 1549. وتألّفت منهم جماعة البلياد كما سمّاها رونسار، الذي نشر هو أيضاً موجزاً في فن الشعر. ولا غرو أن يعرب لابويسيه عن إعجابه بهم، فقد أَثْروا اللغة الفرنسية بوسائل لا تُحصى: خلق الجديد، استرجاع القديم، الاشتقاق من اللاتينية، واليونانية، والإيطالية، حريّة الصرف والنحت، ابتكار صيغ جديدة لاوجود لها في اللغة الفرنسية، وإن وُجِدت في اللغات الأخرى... إلخ.

48 - دروع قيل أنها سقطت من السماء على أرض روما في عهد الملك نوما، وأن الغلبة سوف تظل دائماً لهذه المدينة طالما احتفظ الرومان بها.

---

49 - «أريكتون» بطل أسطوري قيل أنه انحدر من هيفاستوس ملك الحدادين(فولكان عند الرومان)، وإن الآلهة أثينا عنيت به عند ولادته فوضعته في سلّة عهدت بها إلى ثلاث أخوات، شريطة ألا يفتحنه، ولكنهن فعلن، فأصابهن الجنون إما لغضب الآلهة، وإما لأن الطفل كان إنساناً نصفاً ونصفاً ثعباناً، وألقين بأنفسهن من قمّة جبل الأكروبول. صار الطفل ملك أثينا، فأدخل عبادة الآلهة. وإليه ينسب أيضاً أنه اخترع العربات ليخفي نصفه الثعباني.

---

50 - يسدي ابن الربيع - لا فُضَّ فوه - بهاتين النصيحتين إلى المالك في سياسة جمهور الرعية: يجتهد في استمالة قلوبهم، وجعل طاعتهم رغبة لا رهبة. و«ليجعل محبتهم له اعتقاداً دينياً لا طمعاً في أغراض الدنيا». (سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريتي، بغداد، 18.).

---

51 - المراد هو يوليوس قيصر.

---

52 - المراد بالبخل هو -بوجه خاص- الاكتناز بالمعنى الذي سَجَّله ماركس، إذ قال في وصف سيكولوجية المكتنز: «من أجل متعة خيالية لا

حدود لها يترك كل متعة في الواقع».

---

53 - القراصنة المشار إليهم كانوا يفدون -بالأصح- لا من صقيلة، بل من سيسيليا على ساحل آسيا الصغرى الجنوبي.

---

54 - «سينيكا» هو الفيلسوف الرواقي المعروف، بوروس كان معلماً لنيرون، وتراسياس كان عضواً بمجلس الشيوخ. ثلاثتهم اشتغلوا مستشارين لنيرون، وثلاثتهم اتَّهمهم نيرون بخداعه والكيد له، فحكم على بوروس بالسجن، أما الآخران فانتحرا.

---

55 - «بوبيا» محظيّة نيرون، تزوَّجها، ثم قتلها، ويقال بِرَكْلة قَدَم - عام 65.

---

56 - تزوَّجت «أجريبينا» أم نيرون ثلاث مرات، وكان آخر أزواجها عمّها الإمبراطور كلوديوس. جعلته يتبنّى ولدها نيرون، ثم سَمَّمته حتى يعتلي نيرون العرش. ولكنه ضاق بها، فأمر بقتلها.

---

57 - كانت مسالينا(15 - 48)الزوجة الرابعة للإمبراطور كلوديوس وأم بريتانيكوس وأكتافيا. ضُربت بفجورها الأمثال.

---

58 - الأباطرة «دوميسيان، وكرمودوس، وأنطونان»(الذي عرف باسم

كاراكالا)حكموا على الترتيب في السنوات الآتية 80 إلى 96، 180 إلى 192، 211 إلى 217.

---

59 – كائن في صورة إنسان له قرون الماعز وأقدامها. يُطلَق مجازاً على الفاجر.

60 – المراد «بترارك».

---

61 – «آكلو الشعوب» وصف ورد في الإلياذة عدة مرات خلعه هوميروس على بعض الملوك.

***

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أبديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر الحداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان

مقالة في

العبودية المختارة

إيتيان دي لابويسيه

ترجمة: مصطفى صفوان

صرخة إيتيان دي لابويسيه قبل خمسة قرون التي قال فيها «حتى غدت الحرّيّة تبدو اليوم وكأنها شيء لا يمتّ إلى الطبيعة» هي صرخة لا زالت تتردَّد في أرجاء مختلفة من المعمورة، فالحرّيّة تلك التي يبحث عنها الإنسان لا زالت مُتنازَلَ عنها في مكان، ومزَّيفة في مكان آخر، ولا زال قوله: «إن الحيوان لا يتنازل عن حرّيَّته إلا بعد دفاع ضروس ! ولكن الإنسان يفعل ذلك بسبب الحاجة أو غياب الوعي» باقياً.

هذه المقالة التي بين أيدينا قد تقدِّم لنا ضوءاً نستنير به في طريق البحث عن الحرّيّة.



وزارة الثقافة والفنون والتراث

الدوحة - قطر

www.aldohamagazine.com